

التصوف كيمياء النفس

إعداد

د. أحمد شاكر عبدالعزيز العتر
أستاذ الفلسفة الإسلامية المساعد
ورئيس قسم الفلسفة والاجتماع
بكلية التربية - جامعة دمنهور

مجلة الدراسات التربوية والانسانية . كلية التربية . جامعة دمنهور
المجلد السابع عشر - العدد الثالث - لسنة 2025

التصوف كيمياء النفس

د/ أحمد شاکر عبد العزيز العتر

ملخص البحث

فإن موضوع البحث هو "التصوف كيمياء النفس". وفي هذا البحث تحققنا أن كرامات الأولياء من تنمة معجزات الأنبياء وكل رسول كان له أتباع ظهرت لهم كرامات ومخرقات للعادات. وكل نبي ظهرت كرامته على واحد من أمته فهي معدودة من جملة معجزاته. فنسج اليهود أفكاراً لهدم هذا المعنى سموها الأفكار الهرمسية وهي خليط من أعمال الكهنة، فقاموا بدمج أفكار السيمياء والطلسمات والسحر بدعوة الأنبياء والرسول إلى الزهد، فنتج من هذا الخليط العجيب الفكر الغنوصي، وهو فكر يدعو إلى الاتحاد والحلول وتشبيهه الخالق بالمخلوق وتلقف ذلك أعداء الدين الإسلامي وهم أيضاً في الأصل يهود واستغلوا حُب الناس لآل البيت، فغالوا في الإمام عليٍّ وذريته حتى جعلوه إلهاً. ولم يكن هناك أرض خصبة أفضل من التصوف الذي يمثل الحياة الروحية للمسلمين، لبث تلك السموم، فذهبوا إلى أن أي إنسان إذا استطاع أن يمسك عن القوت المعتاد برهة من الزمان وأن يتخلص من الأشياء المادية ويقطع علائق البدن، يستطيع أن يتصل بالخالق بل يصيران الاثنان واحد، وبالتالي أرادوا أن يلحقوا بالتصوف عقيدة إلحادية تسعى لنفي فكرة الوجدانية مستغلين جهل العامة من الناس لإرتباطهم بمفهوم الكرامات التي هي في الأصل موجودة لتجديد دوافع الناس للإرتباط بالدين. فلا بد لنا أن نوضح بأن هؤلاء اليهود اعتمدوا على الجزء الأول من الرواية فقط، لأن الكرامات والمعجزات تعتمد على الزهد لكن في نفس الوقت زهد يستمد معناه من القرآن والسنة الذي يعتمد على أن قلب المؤمن لا يمتلكه إلا الله وهذا هو الزهد الحقيقي. أما الجزء الآخر من الرواية هو أن الزهد لا يكون إلا مع العبادة، فإن العبادة هي أول طريق السالكين، والأولياء أكثر الناس قياماً بفرائض الله سواء كانت ظاهرة أو باطنة، فوجدنا كل مأمور به أو مندوب إليه يستلزم الجمع على الله، وكل منهي عنه أو مكروه يتضمن التفرقة عنه. وهذه أعظم الكرامات.

والجمع والفرق هنا لا يفهم - كما حاول أن يروج اليهود - بأن ذلك دعوة للإتحاد، فهذا معناه الحقيقي هو خروج الولي عن تدبيره إلى تدبير الله، وعن انتصاره لنفسه لانتصار الله، وعن حوله وقوته بصدق التوكيل على الله، وقد قال الله سبحانه: "وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ" [الطلاق/3] وقد قال الله عز وجل: "وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ" [الروم/47]. وكان ذلك لهم لأنهم جعلوا الله تعالى مكان همومهم، فدفع عنهم الأغيار، وقام لهم بوجود الانتصار. وهب علمائنا الأفاضل لاستتكار فعلة اليهود وأكدوا أن الكرامات لم ولن تكون دعوة إلى الحلول

والتشبيه والتجسيم، فإن العابد المخلص قد مُنح يقينًا كاملاً وقلبًا شاهدًا وحالًا عاليًا وحياء زاجرًا له وحاجزًا عليه أن يتلفت إلى غير مولاه أو يرى معه سواه، كما قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي إنا لا نرى مع الحق من الخلق أحدًا، وإن كان ولا بد فكالهباء بالهواء إن فتشته لم تجد شيئًا. فالكرامة هنا دعوة للتحرر من رق الشهوات والبحث عن ما يسمى بأكسير الحياة وتحويل التراب إلى ذهب أو قراءة المستقبل لاستقراء المجهول عن طريق النجوم والكواكب ورد المطلقة وتزويج العانس وعمل حجاب بالمحبة، فلا ينشغل الإنسان إلا بالخالق وهو المصرف والمتصوف في كل الأمور هذا هو أصل المعجزة والكرامة.

الكلمات المفتاحية:

هرمس، المعجزة، الكرامة، الولاية، النبوة، الكهانة، السحر، السيمياء، الطلسمات، الشعوذة، الكيمياء، النفس، التصوف.

Abstract

This research topic is "Sufism as the Chemistry of the Soul." In this study, we verified that the miraculous acts of saints are a continuation of the miracles of the prophets. Every messenger had followers who exhibited extraordinary acts, considered part of their miracles. A miracle performed by a member of a prophet's community is included as one of that prophet's miracles. However, Jews devised ideas to undermine this concept, labeling them as Hermetic ideas—a blend of priestly practices. They merged alchemy, talismans, and sorcery with the prophets' call to asceticism, creating Gnostic thought. This thought advocates unity and incarnation, equating the Creator with the created. Enemies of Islam, originally Jews, adopted these ideas, exploiting the love of Muslims for the Prophet's family, particularly Imam Ali and his descendants, elevating them to divine status.

Sufism, representing the spiritual life of Muslims, provided a fertile ground for spreading these distortions. They promoted the idea that a person who abstains from material desires and worldly attachments could unite with the Creator, even becoming one with Him. Consequently, they sought to associate Sufism with an atheistic belief system that denies the oneness of God, exploiting people's ignorance and their attachment to miracles. These miracles originally served to renew people's faith and connection to religion.

It is crucial to clarify that these Jewish distortions rely only on part of the narrative. Miracles and extraordinary acts indeed rely on asceticism, but it is asceticism rooted in the Quran and Sunnah, where the believer's heart belongs solely to God. True asceticism is coupled with worship, as worship is the starting point of spiritual seekers. Saints are the most diligent in fulfilling God's commandments, both outwardly and inwardly. We found that everything commanded or recommended by God leads to union with Him, while prohibitions and disliked acts result in separation from Him. These are the greatest miracles. However, this union and separation, contrary to Jewish claims, do not imply unity with God. Instead, they reflect the saint's surrender to God's will, reliance on His support, and trust in His strength. As God says: "And whoever relies upon Allah – then He is sufficient for him" [At-Talaq 65:3]. He also says: "It was incumbent upon Us to help the believers" [Ar-Rum 30:47].

This divine support was granted because saints replaced their worldly concerns with reliance on God, who removed their burdens and granted them victory. Esteemed scholars have denounced the Jewish distortions, affirming that miracles were never and will never be a call to incarnation or anthropomorphism. A sincere worshiper attains complete certainty, a witnessing heart, an elevated state, and a sense of shame that prevents them from looking beyond God or seeing anything alongside Him. As Shaykh Abu al-Hasan al-Shadhili said: "We see no one alongside the Truth, and if we must, they are like dust in the air; if you examine them, you find nothing." Here, the miracle becomes a call to liberate oneself from the shackles of desires, seeking the so-called "elixir of life," turning dust into gold, predicting the future through stars and planets, reconciling estranged couples, marrying off spinsters, or creating charms for love. A true mystic focuses solely on the Creator, the One who manages all matters. This is the essence of miracles and extraordinary acts.

Keywords: Hermes, miracle, karamah (extraordinary acts), sainthood, prophecy, priesthood, sorcery, alchemy, talismans, magic, chemistry, soul, Sufism.

المقدمة:

الحمد لله. وأشهد ألا إله إلا الله، وحده لا شريك له، شهادة نافعة على الدوام، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله، مصباح الظلام، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه الكرام. يقول الرسول: "إن في البحر شياطين مسجونة أوثقها سليمان، يوشك أن تخرج فتقرأ على الناس قرآنًا"(1).

أولاً: أهمية الموضوع:

فلقد سعت وراء معرفة علاقة الكيمياء بالتصوف، وسألت نفسي هل يجوز القول بالتصوف كيمياء النفس؟! فظهر خيط معرفي دقيق يُبشر بوجود علاقة ، فوجدت الإمام الغزالي ت505هـ يضع عنواناً لرسالة مهمة تسمى : التصوف كيمياء السعادة، بل وجدت كثير من المستشرقين يربط بين كبار التصوف والكيمياء مثل نيكلسون(2) الذي يؤكد على معرفة ذو النون المصري ت245هـ علم الكيمياء، بل يصل الموضوع إلى أعظم من ذلك في اعتبار الكيمياء تجارب باطنية وأعمال روحية وليست مادية حسية فقط، لدرجة أن آدم ميتز(3) يرى أن هناك أثر كبير أحدثه ذو النون الكيمائي المصري في مذهب الصوفية؛ والحق أن كثير من مشايخ الصوفية في المشرق تأثروا بالتصوف المصري، ولم تنقطع حجة "الفقراء" في دخولهم مصر إلا بعد موت أبي بكر الزقاق ت290هـ . وهنا تحول تشبيه الغزالي للتصوف بالكيمياء عند المستشرقين إلى جعل التصوف مجرد صنعة. بل الأخطر قيام المستشرقين بالخلط بين السيمياء والكيمياء والتصوف.

وخطورة هذا الكلام يجعل المعجزة والكرامة والسحر وأعمال السيمياء والكهانة في مرتبة واحدة، وبالتالي شغلت معجزات الأنبياء المركز الأول في البحوث الكلامية في النصف الأول من القرن الثالث الهجري. لقد أقبل أهل السنة من المسلمين على أخبار العامة عنها وعنوا بتصنيف مؤلفات خاصة فيها، ففي كتاب "الدين والدولة" لابن ربن الطبري ت247هـ فصلاً خاصاً للمعجزات، ويذكر ابن سعد في الجزء الأول من "طبقاته" كل ما وصل إليه من روايات عنها تحت عنوان "علامات النبوة". ونجد لدى الجاحظ للمرة الأولى عنوان "دلائل النبوة" وهذا

(1) مسلم، الصحيح، باب النهي عن الرواية عن الضعفاء، ج1، تحقيق د/ محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب، ط1، القاهرة، د. ت، ص12.

(2) نيكلسون، في التصوف الإسلامي وتاريخه، ترجمة د/ أبو العلا عفيفي، مطبعة لجنة التأليف والنشر، ط1، القاهرة 1947م، ص9.

(3) آدم ميتز، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ج2، ترجمة د/ محمد عبد الهادي أبو ريذة، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، 2013، ص24.

العنوان الذي سنراه يتكرر كثيراً في العصور التالية. فيردد الإيجي بأن المعجزة لا تكون إلا من الله لأنه لا مؤثر في الوجود غيره، والمعجزة حجة على من لم يشهدا كما أنها حجة على من شهدا، لأنه يمكن العلم بوقوعها بالتواتر الذي يمتنع معه التواطؤ على الكذب والذي يفيد العلم اليقيني.(1)

وعلى العكس من ذلك لم يكن المعتزلة يسرفون في إعطاء أهمية كبرى للمعجزات وقاموا برفض الكرامات للأولياء مخافة خلطها بقوى السحر وأعمال الكهنة. هم لم ينكروها على الإطلاق؛ لكنهم اعترضوا على استغلالها كبرهان على بعثة الرسول، ووجهوا هذه الاعتراضات في الوقت نفسه إلى أهل السنة الذين ناصبواهم العداء. وقد مالوا إلى القول بأن ظهور المعجزة لا يدل على صدق النبوة، إذ قد تكون من فعله إذ قد يكون ساحر أو في بدنه مزاج خاص يؤثر في خاصيته بعض المركبات، أو قد يكون مستنداً إلى بعض الجان أو الشياطين، هذا ولعل التحدي لم يبلغ من هو قادر على المعارضة، أو لعل المعارض يخاف شوكة مدعي النبوة فضلاً عن أن المعجزة ليست حجة على من لم يشهدا.

وابن عربي(2) ت638هـ يحذر من الروحانيين من الجان: الكيس، من الناس، من يهرب منهم كما يهرب من الناس. فإن مجالستهم رديئة جداً، قليل أن تنتج خيراً. لأن أصلهم نار، والنار كثير الحركة. ومن كثرت حركته، كان الفضول أسرع إليه في كل شيء. فهم - أي الروحانيون من الجان - أشد فتنة على جليسه من الناس. فإنهم قد اجتمعوا، مع الناس، في كشف عورات الناس التي ينبغي للعاقل أن لا يطلع عليها ثم اعلم أن الجان هم أجهل العالم الطبيعي بالله. ويتخيل جليسه، بما يخبرونه به من حوادث الأكوان، وما يجري في العالم، مما يحصل لهم في سترار السمع من الملاء الأعلى، فيظن جليسه أن ذلك من كرامة الله به. وهيهات لما ظنوا! ولهذا ما ترى أحداً، قط، جالسهم فحصل عنده منهم علم بالله، جملة واحدة. غاية الرجل، الذي تعتني به أرواح الجن، أن يمنحوه من علم خواص النبات، والأحجار، والأسماء، والحروف، وهو علم السيمياء. فلم يكتسب منهم إلا العلم الذي ذمته ألسنة الشرائع.

فإن خلط السيمياء بالكيمياء كان الهدف منه جعل تقدم المسلمين في العلوم وخاصة العلوم الكيميائية والطبيعية مجرد سحر وشعوذة قائمة على الخرافة والأساطير، بل دفع الناس إلى تشويه المنهج العلمي عند المسلمين. كما أن الربط بين السيمياء والتصوف يهدر القيمة الروحية للمسلمين، بل يشوه مفهوم المعجزة والكرامة عندهم، بل يختلط عند العامة منهم مفهوم الكرامة

(1) الإيجي، المواقف، مكتبة المتنبى، ط1، القاهرة، د. ت، ص365.

(2) ابن عربي، الفتوحات المكية، السفر الرابع، تحقيق د/ عثمان يحيى، د/ إبراهيم مدكور، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة،

بمفهوم السحر والشعوذة . فإن الكيس من الناس، من يهرب من السحرة والممخرقين المجالسين للروحانيين من الجان. فإن مجالستهم رديئة. فمن ادعى صحبتهم - وهو صادق في دعواه - فاسألوه عن مسألة في العلم الإلهي: ما تجد عنده، من ذلك، ذوقاً أصلاً.

لذلك نجد من أجهد نفسه في جعل الكيمياء سرّاً يجب كتمانها أو خلط بين بين منهج الكيمياء العلمي الاستقرائي القائم على التجربة والملاحظة وبين ما يسمى بالكيمياء التي تعتمد على الألغاز والرموز وتعتمد الغموض والإرباك والاتخاذ من السحر والشعوذة منهجاً لهم، وأغلب هذه الكتب عديمة الفائدة تقريباً. وهذا ما جعل بعض علماء المسلمين من التحذير من هذه الأمور التي تدعى علوم السيمياء. (1) يقول ابن خلدون: " وكذلك لأهل السيمياء المرتاضين لكشف الحجاب لاستئصال روحانية الأفلاك والتصرف في عالم الطبيعة بمعونة منها فلا تتجلى لهم حقائق المعلومات على ما هي عليه بل على ما هي عندهم فلا يظفرون إلا بالخسران المبين" (2).

إذن نحن لسنا ضد الكيمياء كعلم من العلوم التجريبية، وإنما ضد ما يسمى بالكيمياء. ونؤكد على أن وصف الإمام الغزالي رسالته بكيمياء السعادة هو مجرد تشبيه بين عمل الكيمياء في خلق تناغم بين العناصر وبين عمل التصوف الذي يخلق تناغم بين النفس والجسم. فيلجأ الغزالي إلى التشبيه لتقريب الأفهام، فيرى أن هناك نوعين من الكيمياء (3) : الكيمياء الظاهرية وكيمياء السعادة، ولا يعرف الكيمياء الظاهرية إلا الملوك المقبلين على ترف الدنيا وهؤلاء لا يعرفون حقيقة النفس، بل يعرفون الجسم الظاهر الذي هو اليد والرجل والرأس والجثة، فإذا غضب طلب الخصومة وإذا اشتهى طلب النكاح، وإذا جاع طلب الأكل وإذا عطش طلب الشراب، والدواب تشاركك في هذه الأمور ... أما كيمياء السعادة فهي التي تعلمك أن الروح حقيقة جوهرية وغيرها غريب منك وعارية عندك، فالواجب عليك أن تعرف نفسك بالحقيقة حتى تدري أي شيء أنت ومن أين جئت إلى هذا المكان، ولأي شيء خلقت، وبأي شيء سعادتك، وبأي شيء شقاوتك. فإن معرفة الله تعالى هو معرفة النفس، فكذلك كيمياء السعادة لا تكون إلا في خزائن الله سبحانه وتعالى، ففي السماء جواهر الملائكة، وفي الأرض قلوب الأولياء العارفين، فكل من طلب هذه الكيمياء من غير حضرة النبوة فقد أخطأ الطريق ويكون عمله كالدينار البهرج فيظن في نفسه أنه غني وهو مفلس في القيامة.

(1) د/ فاضل أحمد الطائي، أعلام العرب في الكيمياء، الهيئة العامة للكتاب، ط1، القاهرة، 1986م، ص39.

(2) ابن خلدون، شفاء السائل، تحقيق، أغناطيوس اليسوعي، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ط1، القاهرة، 2022م، ص41.

(3) الغزالي، كيمياء السعادة، مكتبة الجندي، القاهرة، د. ت، ص 74/73.

لهذا أرسل الله سبحانه وتعالى الأنبياء والرسول يعلمون الناس نسخة الكيمياء ويعلمونهم كيف يجعلون القلب في كور المجاهدة وكيف يطهرون القلب من الأخلاق المذمومة، وكيف يؤدونه لطرق الصفاء كما قال سبحانه وتعالى "هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ" [الجمعة/2] أي يطهرهم من الأخلاق المذمومة ومن صفات البهائم ويجعل صفات الملائكة لباسهم وحليتهم، ومقصود هذه الكيمياء إن كل ما كان من صفات النقص يتعزى منه وكل ما يكون من صفات الكمال يلبسه، وسر هذه الكيمياء أن ترجع من الدنيا إلى الله كما قال سبحانه وتعالى "وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا" [المزمل/8]. فإن العلاقة الناشئة بين التصوف والكيمياء ربما تكون ناتجة من طريقة عمل الكيميائي في فصل العناصر وتغليب أحدهما على الآخر، فينتج عنصراً آخر قد يكون أعلى في القيمة من العنصر الأصلي. فإذا عزلت الماء عن التراب والهواء عن النار فارتفع كل واحد في إنائه على حدة وخذ الهابط أسفل الإناء، وهو الثقل فاغسله بالنار الحارة حتى تذهب النار عنه سواده وتزيل غلظه وجفاؤه، وببيضه تبيضاً محكماً - وكان ذلك وصف لتنقية القلب من نار الشهوة فهي نار - طير عنه فضول الرطوبات المستجنة فيه، فإنه يصير عند ذلك ماء أبيض لا ظلمة فيه ولا وسخ ولا تضاد ... فعند ذلك يقوى الغليظ على إمساك اللطيف، وتقوى الروح على مقابلة النار وتصبر عليها، وتقوى النفس على الغوص في الأجساد والديبب فيها. وإنما وجد ذلك بعد التركيب لأن الجسد المحلول لما ازدوج بالروح مازجه بجميع أجزائه، ودخل بعضها في بعض لتشاكلها فصار شيئاً واحداً. ووجب من ذلك أن يعرض الروح من الصلاح والفساد والبقاء والثبوت ما يعرض للجسد لموضع الامتزاج ... وكذلك النفس إذا امتزجت بهما ودخلت فيهما بخدمة التدبير اختلطت أجزاؤها بجميع أجزاء الآخرين، أعني الروح والجسد، وصارت هي وهما شيئاً واحداً لا اختلاف فيه بمنزلة الجزء الكلي الذي سلمت طبائعه واتفقت أجزاؤه ... (1)

السؤال هنا هل الغزالي طرح لفظ "التناغم" كرابط بين التصوف والكيمياء عشوائياً؟! ولماذا ربط الكيمياء بعمل الأنبياء والرسول؟! هل ليؤكد صحة موقف ذو النون المصري من عمله بالكيمياء وكل من كان كيميائياً؟!

لم يكن ذلك تصور عشوائي من الغزالي، فقد لاحظنا أن أول من تكلم في علوم الكيمياء هو هرمس وهو النبي إدريس عليه السلام. إذن عمل الكيمياء كما تصور بعض المستشرقين ليس ذنباً، فيقول أبو معشر البلخي في كتاب "الألوف". هرمس: "هو أول من تكلم في الأشياء

(1) ابن خلدون، المقدمة، ج3، تحقيق د/ علي عبد الواحد وافي، نهضة مصر للنشر، ط9، القاهرة، 2019م، ص1076/1077.

العلوية من الحركات النجومية ... وأول من نظر في الطب وتكلم فيه ... وكان مسكنه صعيد مصر، فبنى هنالك الأهرام، ومدائن التراب ... وأن إدريس أول من درس الكتب، ونظر في العلوم، وأنزل الله عليه ثلاثين صحيفة، وهو أول من خاط الثياب ولبسها، ورفع الله مكاناً علياً" (1).

وربما يكون هناك أكثر من هرمس، فيرى ابن أبي أصيبعة أن هرمس الثالث، سكن مصر، وكان بعد الطوفان. وهو صاحب كتاب "الحيوان ذوات السموم". وكان طبيباً فيلسوفاً "حكيمًا"، عالمًا بطبائع الأدوية القتالة، والحيوانات المؤذية. وكان جوالاً في البلاد طوافاً بها، عالمًا بطبائع المدائن وطبائع أهلها. وله كلام حسن في صناعة الكيمياء نفيس، يتعلق منه إلى "صناعات" كثيرة كالزجاج والخرز وكان له تلميذ يعرف بأسقليبيوس، وكان مسكنه بأرض الشام. (2)

فإن عمل الكيمياء هو القيام بخطوات تجريبية ليس بينها وبين السيمياء علاقة، فلم الكيمياء علم ينظر في المادة التي يتم بها كون الذهب والفضة بالصناعة، ويشرح العمل الذي يوصل إلى ذلك، فيتصفحون المكونات كلها بعد معرفة أمزجتها وقواها لعلهم يعثرون على المادة المستعدة لذلك ... ثم يشرح الأعمال التي تخرج بها تلك المادة من القوة إلى الفعل مثل حل الأجسام إلى أجزائها الطبيعية بالتصعيد والتقطير. (3)

إذن ليس هناك علاقة بين الكيمياء والسحر، والغريب في الأمر أن معظم مؤرخي الإسلام من ابن النديم (4) وابن القفطي (5) والمسعودي (6) أكدوا على أن ذو النون المصري انتحل صناعة الكيمياء ولم يصفه أحد بأنه تعلم علم السيمياء أو كان ساحراً.

فالصحيح ربما تكون العلاقة بين الكيمياء والتصوف وجدت أيضاً بسبب النبي إدريس فهو موصوف بأنه "صديقاً نبياً" أي كانت دعوته الإعراض عن متاع الدنيا فلقد جمع بين النبوة والملك والحكمة لذلك لُقّب بمثلث العظمة. "أن الإنسان الناقص العقل، هو المخادع نفسه، والمهلك لها لا الدنيا لأن الدنيا أظهرت له جميع ما في طلبها من نعيم وبؤس، فاغتنب الإنسان الضعيف العقل بنعيمها، واعتقده دائماً، ونسى بؤسها وأهمله ... فتحرزى يا نفس من الدنيا،

(1) ابن جليل، طبقات الأطباء والحكماء، تحقيق: فؤاد سيد، طبعة المعهد العلمي الفرنسي للأثار الشرقية، ط1، القاهرة، 1955م، ص6/5.

(2) ابن خلدون، المقدمة، ج3، مصدر سابق، ص1069.

(3) نفس المصدر السابق، ص1069.

(4) ابن النديم، الفهرست، ج1، تحقيق: جوستاف فليجل، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، 2006م، ص496.

(5) القفطي، إخبار العلماء بأخبار الحكماء، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 2005م، ص228.

(6) المسعودي، مروج الذهب، ج2، دار المعرفة، ط1، بيروت، 2005م، ص401.

واعرضي عنها وانظري إليها بعين الخائف الوجل منها ... [فإن] المقتني للأشياء الخارجة عنه حزين طول دهره، والفقير إلى الشهوات فقير أبداً" (1).

ومن ينظر إلى الأدب الهرمسي من لغز قابس وكتاب التفاحة وكتاب زجر النفس، فالمعنى المشترك بينهم واحد وهو الاستغراق في الزهد، فإن الشهوات والملذات بريق خداع، يجذب بقوة جميع الناس، ما خلا الحكماء، وإذا ما اتبع المرء شهواته سار عبداً لها يسلك في سبيل تحقيقها أي طريق مهما كان وعراً رذيلًا، وتكون عاقبته عذاب الندم. لذلك من الممكن أن تكون العلاقة وجدت بين التصوف والكيمياء، لارتباط الكيمائي أحيانًا بالزهد.

فلا ضير ولا حرج أن نقول بأن هرمس المقصود به إدريس من أهل الأنوار والنبوة وجمع بين الزهد والكيمياء، وكيف لا وعقيدته هي عقيدة التوحيد؟! لدرجة أن البوشينجي يقول: "التصوف اليوم اسم بلا حقيقة، وقد كان من قبل حقيقة بلا اسم" (2) أي أن معناه موجود قبل أن يطرح كاسم. وكان مشهور عن إدريس عليه السلام السياحة في الأرض مع الزهد في متاع الدنيا. انظر لتعريف الطوسي للصوفية، فيقول: "هم قوم قد تركوا الدنيا، فخرجوا عن الأوطان، وهجروا الأخدان، وساحوا في البلاد، وأجاعوا الأكباد، وأعروا الأجساد، لم يأخذوا من الدنيا إلا ما لا يجوز تركه، من ستر عورة، وسد جوعة فلخروجهم عن الأوطان سموا غرباء. ولكثرة أسفارهم سموا سياحين" (3).

ومن هنا عمد بعض الغلاة من المستشرقين من جعل ذو النون سيميائيًا ثم تصوف وجعل جابر بن حيان صوفيًا ثم أصبح كيميائيًا. فهذا - على سبيل المثال - هولميارد (4) الذي يجعل من جابر بن حيان صوفيًا، وكأن تقدم جابر بن حيان في العلوم الكيميائية، ناتج عن اتجاه صوفي أقرب إلى نزعات السيميائيون أصحاب نزعات السحر والشعوذة، وهنا هولميارد يحاول أن يشكك في منهجية جابر بن حيان العلمية وفي نفس الوقت يحاول أن يجعل التصوف مجرد حيل وسحر ودروشة وغيب عن الواقع. فإذا تحققنا من وصف جابر بن حيان بأنه صوفي وجدنا ذلك مغالطة كبرى، فمعظم كتابات أهل التصوف العدول على سبيل المثال قوت القلوب،

(1) هرمس، زجر النفس، دار المحجة البيضاء، ط1، بيروت، 2006م، ص17/15.

(2) الهجويري، كشف المحجوب، ج1، ترجمة د/ إسعاد قنديل، تقديم د/ بديع جمعة، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2007م، ص247 وكذلك تذكرة الأولياء، ج2، لفريد الدين العطار، تحقيق د/ منال اليميني، الهيئة المصرية

العامة للكتاب، ط1، القاهرة، 2008م، ص156.

(3) الطوسي، اللمع، ضبطه د/ كامل الهنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ص46، 1928م، ص117.

(4) هولميارد، مصنفات في علم الكيمياء، طبعة باريس 1928م، ص117.

واللمع، والرسالة القشيرية، وطبقات الصوفية وغيرها من كتابات لم تذكر أن جابر بن حيان صوفيًا، فمن أين أتى هولميارد بهذا الوصف؟!.

فتجد دائرة المعارف البريطانية وكذلك دائرة المعارف الإسلامية يؤكدان على أن جابر بن حيان الأزدي صاحب كيمياء عربي مشهور (1).

بل حاول المستشرقون الربط بين علم الكيمياء وخالد بن يزيد الأموي ت82هـ وهو لا يعلم شيئاً عن هذا العلم، وربما نسبوا بعض المذاهب والأقوال فيها - الكيمياء - لخالد بن يزيد بن معاوية ربيب مروان بن الحكم. (2) ومن المعلوم البين أن خالدًا من الجيل العربي، والبداءة إليه أقرب، فهو بعيد عن العلوم والصنائع بالجملة، فكيف له بصناعة غريبة المنحى مبنية على معرفة طبائع المركبات وأمزجتها؛ وكتب الناظرين في ذلك من الطبيعيات والطب لم تظهر بعد ولم تترجم. اللهم إلا أن يكون خالد بن يزيد آخر من أهل المدارك الصناعية تشبه باسمه فممكن. وهذا ما تنبه أحد المصنفين من المستشرقين الدوميلي (3) من وصف علم الكيمياء عنده بأنه: "ليس ذلك إلا أسطورة محضة، على الأخص ما ذكر عن تجرعه في علم الصنعة".

لذا فإن الكيمياء ليست سحرًا أو ضربًا من الشعوذة، فنحن لا نرفض الكيمياء كعلم ولا نحذر منها، وهذا ما قام به الإمام فخر الدين الرازي من عقده فصلًا في إمكانه. والمرفوض هو علم السيمياء وعلى رأس الرافضين ابن خلدون في مقدمته وابن سينا بمقدمات من كتاب الشفاء وفي رسالة في علم الإكسير وابن تيمية صنف رسالة في إنكاره وصنف الكندي أيضًا رسالة في إبطاله وأشار فيها أنه ليس في مقدور الإنسان تكوين الذهب والفضة من المعادن الأخرى، بل يجب أن يؤخذوا من المناجم.

والسيمياء هي التفسير الروحي للنفس، والذي هو أساس وهدف الثيوصوفيا الإسماعيلية، فالسيمياء لها بعد روحي، فهو علم يتخطى بمراحل، مجرد التطبيق المخبري التجريبي الحسي الملموس.

وانتشرت السيمياء بين الجماعات اليهودية وكان يغلب عليها المعرفة السحرية الغنوصية التوفيقية. والتي كانت تشكل الأساس المشترك للثقافة الدينية في الشرق الأدنى. والمعرفة هذه كانت تتضمن علم التنجيم، علم الأعداد، وعددًا آخر من العلوم الباطنية. وانتقل هذا الفكر من اليهود إلى غلاة الشيعة الذين كانوا في الأصل يهود وظلوا، فبالغوا وجعلوا من هرمس وهو النبي إدريس "الماجد" أو المطاع وهو الإنسان الكامل، فمن أراد أن يوفر على نفسه عناء الطريق

(1) دائرة المعارف البريطانية/ ج10، ط14، ص83.

(2) دائرة المعارف الإسلامية، ج6 [جابر بن حيان] ص228/226.

(3) الدوميلي، العلم عند العرب، ترجمة د/ محمد يوسف وآخرون، دار القلم، ط1، الكويت، 1962م، ص99.

الظاهري والمذهبي "الشرعي" عليه أن يلتقي بالماجد "هرمس" الإنسان الكامل، وبمعرفته يصير مماثلاً له، هو ببساطة الإمام عينه والعقل المنقي بشكل كاف.

فإن الإمام هو التجلي الأكمل والأسمى، وامتداد للحكمة والقدرة الإلهية على الأرض. وبذلك تظهر أهمية السيمياء، كبعد باطني للوحي النبوي من وجهة نظر غلاة الشيعة. فإن السيمياء هي أخت النبوة، فكل شئ موجود منها، فهي لم تزل موجودة فما من شجرة ولا قطعة طين ولا أي شئ آخر إلا ويستمد منها أصله، أو أنه مشتق جزئياً عنها.

وبالتالي استطاع الفكر الغنوصي اليهودي من تحريف عقيدة إدريس عليه السلام التوحيدية وتحويل علم الكيمياء إلى سيمياء خرافية حتى جعلوا من إدريس عليه السلام بمثابة إنسان كامل أو "ماجد" واشتغل على ذلك المستشرقين حديثاً أمثال نيكلسون وكوربان وبيرلوري(1) الذي حاول أن يفرض مبدأ هو أن السيمياء كعلم لها أصل نبوي، ويدل على ذلك بسيدنا إدريس الذي لم يلعب فقط دور المصلحين الدينيين - حسب تعبيره - بل كان له دور بارز في علوم السيمياء، فلقد تلقى من الوحي الفنون المختلفة: علم الفلك، فن العمارة المقدس، التنجيم، الطب والسيمياء.

وليس هذا فحسب، بل يقولون بعروج أتباع "الماجد" أو هرمس إلى السماء، ووقوفهم بين يدي الرب، ومناجاتهم به، وتكلمه إياهم، فيحكى ابن البان عن نفسه: "أوقفني الحق على بساط الإسراء ... وارتقيت إلى السماء الأولى... ثم ارتقينا إلى السماء الثانية ... ثم انتهينا إلى السماء السابعة ... وفيها ملك على كرسي من نور ...". (2). وهناك آخرون كثيرون ادعوا عروجهم إلى السماء، ومعرّاجهم أو مكالمتهم الرب، ومخاطبتهم إياه وكأن ذلك تحقيق ما حدث لإدريس عليه السلام: "وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا" [مريم/57]. ويذكر عبد الكريم الجيلي(3) أن أتباع - إدريس - يعرجون إلى السماء الأولى ويطوفون حولها، وبعضهم يتجاوزون من السماء الأولى ... وبعضهم يصلون إلى العرش إذا أمكن لهم. هذا بالنسبة للعروج وأيضاً تحدث مكالمته الرب: "فمن المكلمين من يذهب به الحق من عالم الأجسام إلى عالم الأرواح وهؤلاء أعلى مراتب. فمنهم من يخاطب في قلبه، ومنهم من يصعد بروحه إلى سماء الدنيا ومنهم إلى الثانية والثالثة كل على حسب ما قسم له، ومنهم من يصعد به إلى سدة المنتهى فيكلمه الله هناك، وكل من المكلمين

(1) بيرلوري، من تاريخ الهرمسية والصوفية في الإسلام، ترجمة د/ لويس صليبا، دار بيبليون، ط4، بيروت، 2016م، ص121.

(2) ابن البان، المواقف الإلهية، ضمن كتاب الإنسان الكامل في الإسلام، تحقيق د/ عبد الرحمن بدوي، وكالة المطبوعات، ط2، الكويت، 1979م، ص164.

(3) الجيلي، الإنسان الكامل، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط4، القاهرة، 1402هـ، ص66/65.

على قدر دخوله في الحقائق تكون مخاطبات الحق له، لأنه سبحانه وتعالى لا يضع الأشياء إلا في مواضعها وممن صعد به إلى سدة المنتهى يقال له " ... آنيك هي هويتي وأنت عين هو وما هو إلا أنا ...".

هذا التصور الغنوصي لمفهوم الإمام عند غلاة الشيعة كان سبباً أيضاً إلى ظهور "الهرمينوطيقا" وجعلت هيدجر ت976م(1) في كتابه "الوجود والزمان" يرى أن الهرمينوطيقا هرمسية قلباً وقالباً، من حيث هي "فن الفهم وتأويل النصوص"، ويبدو أن ماهية الهرمينوطيقا أن تكون حدية، أن تتوسط بين مجالات الوجود سواء بين الله والبشر، الصحة والنوم، الوعي واللاوعي، الحياة وما بعد الحياة، الجلي والخفي، النهار والليل ... وفي الحالات الشديدة تُعد رسالة هرمس مزلزلة للعالم: فهي تُحدث، كما يقول هيدجر "تحولاً في الفكر".

فلقد أعاد هيدجر تعريف الفينومينولوجيا ليثبت لنا أن هرمس هو المترجم أو المفسر أو الناقل أو المتكلم عن الإله، فهو رسول الآلهة بحكم وظيفته يتقن لغة الآلهة ويفهم ما يجول بخاطرهم، ثم يترجم مقاصدهم وينقلها إلى البشر، ... وهو إذ يفعل ذلك فقد كان عليه أن يعبر البون الفاصل بين تفكير الآلهة وتفكير البشر.

لذلك في تعريف الفينومينولوجيا. يعود إلى الجذرين اليونانيين للكلمتين: phenomenon، و Logos؛ فيقول أن الكلمة الأولى تعني: "ذلك الذي يُظهر نفسه، الظاهر، المنكشف، وإن pha شبيهة بكلمة phos اليونانية التي تعني الضوء، التألق، ذلك الذي فيه يمكن لشيء ما أن يظهر، أن تصبح مرئياً. (2) وأما اللاحقة ology فتعود إلى الكلمة اليونانية لوجوس Logos، والمعنى الأعرق لكلمة لوجوس هو "ترك الشيء يظهر". ومن ثم فإن للوجوس وظيفة كشفية تخرج الشيء من التحجب إلى وضوح النهار، فهو يشير إلى الظواهر، ويدع الشيء يظهر على أنه ذلك الشيء، أي أن ما يظهر هو تجل انطولوجي للشيء نفسه، ويعتبر هيدجر أن ترك الشيء يظهر على ما هو عليه هو مسألة تعلم؛ علينا أن نتعلم كيف نتيح للشيء أن يفعل ذلك. واللوغوس "الكلام" في الحقيقة ليس قوة يمنحها للغة، مستخدماً اللغة؛ بل قوة تمنحها له اللغة. وسيلة للرضوخ لما انكشف وظهر من خلال اللغة.

وكما قال ابن البان أصبح هرمس هو الكلام هو المفسر بل هو التفسير ويمنح ذلك عن طريق السر الباطني "السيمياء" فهي ليست عملاً إنسانياً، وإنما معرفة ذات أصل إلهي. بل أهل الباطن ذهبوا أبعد من ذلك: فالسيمياء عندهم هي جزء من تلك العلوم المنتمية إلى الباطن. وذلك

(1) هيدجر، الوجود والزمان، ترجمة د/ فتحي المسكيني، مراجعة د/ إسماعيل المصدق، دار الكتاب الجديدة، ط1، ليبيا، 2012م، ص73.

(2) د/ عادل مصطفى، نظرية التأويل من أفلاطون إلى جادامر، رؤية للنشر، ط1، القاهرة، 2007م، ص 96/95/73.

أثر واضح من آثار القبالة (1) أو الكبالا وهي الغنوصية اليهودية وظهر ذلك جلياً عند غلاة الشيعة الذين يعتبرون تعاليم أئمتهم مكمله ومفسرة للمعطيات الظاهرة للقرآن والشريعة، فالسيميائية تختص بمعرفة مخفية مقتصرة على النخبة. وبهذه المعنى، فهي لا ترجع إلى النبوة المشرقة القائلة بالظاهر. وإنما إلى المعاني الخفية التي هي بمثابة جوهر هذه النبوة. فالنبي المشرع أتى ليحمل إلينا الشريعة. في حين أن الإمام أتى ليعلم معانيها السرية. وهكذا فالسيميائية تمثل بعداً لهذا الباطن. وهي حاضرة في مختلف مراحل نشر الوحي.

إن تأثير الغنوص اليهودي ترك بصمة واضحة حتى على عقلية هيدجر الذي ربط بين التفسير وبين شخصية هرمس رسول الآلهة، فيرى أن الرسالة التي يحملها هرمس ليست رسالة عادية؛ إنه يحمل الخبر الصاعق والنبأ الجلل. فالتأويل في أسرار معانيه هو أن تكون قادراً على فهم هذه الأنبياء المقدورة، بل نفهم قدرية الأنبياء. فإن هرمس ذاته هو الكرامة بل هو المعجزة أي أن تؤول هو أن تستمع أولاً، وعندئذ تصبح أنت نفسك رسول الآلهة. وكما يقول أفلاطون في محاورة فيدون (2)؛ من قدر الإنسان حقاً أن يتخذ موقفاً تأويلياً من وجوده الخاص، ومن قدر البشر، بقدر ما يكونون بشراً حقيقين، أن يستمعوا إلى الرسالة، أن يصغوا إليها وينتصروا إليها بوصفهم بشراً. في هذه المنطقة، منطقة الإفضاء، يقف الإنسان فينكشف له شيء ما، ويأتي نحوه حاملاً الحضور والشيء الحاضر في آن معاً. على الإنسان هنا ألا يفعل بل يفعل، ألا يتكلم بل يصغي، ألا يفسر بل يفهم الشيء الذي أسفر عن نفسه. لا يصبح الإنسان "هرمساً" بحق، أي حامل رسالة، إلا لأنه أولاً وقبل شيء فتح كيانه لعملية "التجلي"، الإنسان هو حامل الرسالة التي ألقى بها إليه هذا التجلي المزدوج.

وأصبح الخوض في علم المكاشفة مقدمة لظهور علم أسرار الحروف "علم السيميائية" الذي كانت مظاهره أرواح الأفلاك والكواكب وأن طبائع الحروف وأسرارها سارية في الأسماء والأكوان من لدن الإبداع الأول تنتقل في أطواره وتغرب عن أسرارها. فهو علم يتخطى مفهوم كل معجزة وكرامة لظهور آثاره عند تصرف النفوس الربانية في عالم الطبيعة بالأسماء الحسنی والكلمات الإلهية الناشئة عن الحروف المحيطة بالأسرار السارية في الأكوان.

فإن ما يجول بخاطري في هذا البحث هو توضيح ورسم صورة ذهنية صحيحة عن الكهانة وما نتج عنها من سحر وطلسمات وسيميائية وشعوذة وعن أصل الكيمياء ودور المعجزة والكرامة في بناء القيم الروحية والدينية في نفوس المسلمين والتأكيد على نداء الإسلام بأن الدين

(1) د/ علي سامي النشار، نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، ج1، دار المعارف، ط10، القاهرة، 2018م، ص188.

(2) أفلاطون، فيدون، ترجمة وتعليق د/ علي سامي النشار، د/ عباس الشربيني، دار المعارف، ط3، القاهرة، 1965م،

واحد وبأن الشريعة مختلفة. وأن التوحيد هو رسالة لكل نبي ومصدر بعثه، وسيدنا محمد جاء ليضع التوحيد في أبهى صورته وأكملها. وقد قرر أن الرسل والأنبياء قد تتابعوا من قبل ينقلون الإنسانية من طور إلى طور حتى انتهت إلى طورها الأخير على يديه. وأعلن إعلاناً حاسماً أن ما جاء من قبله من رسائل وبعوث قد حرفت وبدلت. (1)

وأن إدريس وابن دواد عليهم السلام لم يأتوا أبداً سيمائيين، بل مبشرين وداعين إلى الحق والعدل. وأن ادعاء اليهود باطل ومن تبعهم من غلاة الشيعة في تدمير أصل المعجزة والكرامة، قال تعالى: "وَاتَّبِعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكٍ سُلَيْمَانَ" [البقرة/102] هذا إخبار من الله تعالى عن الطائفة الذين نبذوا الكتاب بأنهم اتبعوا السحر أيضاً، وهم اليهود. وقال السدي: عارضت اليهود محمداً صلى الله عليه وسلم بالتوراة فانفقت التوراة والقرآن فنبدوا التوراة وأخذوا بكتاب آصف وبسحر هاروت وماروت ... وزعم بعض أحبار اليهود بأن ابن داود - عليهما السلام - كان ساحراً وليس نبياً ... ولقد كتبت الشياطين السحر والنجريات على لسان آصف كاتب سيدنا سليمان، ودفنوه تحت مصلاه، ولما مات سيدنا سليمان أخرجوه اليهود وقالوا هذا علم ملككم واستغنوا به عن كتب أنبيائهم لذلك قال تعالى " وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا" [البقرة/102] وهذا تدليل على كفر فاعل السحر والقائم عليه. (2) فكيف تتساوى الكرامة مع السحر؟ كيف يتساوى الإيمان مع الخبث والخبائث؟!

(1) د/ علي سامي النشار، نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، ج1، مصدر سابق، ص64.

(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج2، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط3، القاهرة، 1987م، ص42/41.

ثانيًا: إشكالية البحث:

إشكالية هذا الموضوع متشابكة، ومتداخلة، ويبدو تداخل الماضي في الحاضر، وكأن الكون منذ نشأته صفحة واحدة بعقول وأفكار متناثرة إلا أن جذورها واحدة. فمن ضمن هذه الأسئلة:

مَنْ هو هرمس؟ وَمَنْ هم الهرمسية؟

ما علاقة هرمس بالكيمايا والحياة الروحية الباطنية؟

ما تأثير اليهود على التراث الهرمسي؟ ولماذا ظهر هذا التأثير العنيف على التصوف؟

ما علاقة السيمياء بالتصوف؟

هل الجغرافيا المكانية تأثير على أحداث التصوف؟

ما المقصود بالسحر؟

ما العلاقة الرابطة بين المعجزة والكرامة؟

ألم يكن رد التصوف إلى هرمس دليل على أصوله التوحيدية؟!

ثالثًا: المناهج المستخدمة:

استخدام منهج بعينه في موضوع يتعلق بالسحر وعلوم السيمياء والمعجزة والكرامة مسألة صعبة، فمنهج الصوفية يؤكد على أن فهم إشارات القرآن عن المعجزة والكرامة ليس قضية لغة ولا علم، بل هو منوط بتطهير السر عن الأكوان. الصوفي يفهم إعجاز القرآن عن طريق تحقيق معانيه في حياته. بقدر ما يفهم هذه المعاني يحققها، وبقدر ما يحققها يفهمها⁽¹⁾ لدرجة أن التستري يصف معجزة القرآن بأن العبد لو أعطى بكل حرف من القرآن ألف فهم لم يبلغ نهاية ما أودعه الله في آية من كتابه؛ لأنه كلام الله، وكلامه صفته. وكما أنه ليس لله نهاية، فكذلك لا نهاية لفهم كلامه وآياته - معجزاته - وإنما يفهم كل بمقدار ما يفتح الله عليه. (2)

فالصعوبة تكمن في تحديد منهج لفهم ما يغيب عن قدرات المنهج نفسه، وحتى ذلك يظهر في علوم السيمياء والسحر، فيقول البوني: "ولا تظن أن سر الحروف "السيمياء" مما يتوصل إليه بالقياس العقلي وإنما هو بطريق المشاهدة والتوفيق الإلهي". (3) لذلك سأحاول أن يكون منهجي عقلي بقدر الإمكان، مؤولًا ومفسرًا، لذا سيكون تحليلي تركيبى نقدي مغلف بالمنهج التاريخي لذلك ستحدث مقارنات كثيرة بهدف توضيح اللبس بين ما هو تجريبي وما هو ديني روحي.

(1) شقيق البلخي، آداب العبادات، حققها بولس نويا اليسوعي، دار المشرق، ط2، بيروت، 1982م، ص7.

(2) التستري، تفسير القرآن العظيم، تحقيق د/ طه عبد الرؤوف سعد، دار الحرم للتراث، ط1، القاهرة، 2004م، ص89.

(3) ابن خلدون، شفاء السائل، مصدر سابق، ص56.

رابعاً: الدراسات السابقة:

حقيقة ملهمي الأول هو الأستاذ الدكتور عبد الفتاح أحمد فؤاد وأستاذي الفاضل وأستاذ الأجيال الدكتور علي سامي النشار، وإن كنت لست سلفياً وإنما أشعرياً ولست كعادة الأشاعرة، فإنني حنفي العقيدة والمذهب. لهذا فأهم دراستين هما:

دراسة الدكتور عبد الفتاح أحمد فؤاد، الأصول الرواقية في الفلسفة الإسلامية، دار الوفاء، ط1، الاسكندرية، 2003م.

ودراسة الدكتور علي سامي النشار، نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، ج1، دار المعارف، ط10، القاهرة، 2018م.

ومن الدراسات الحديثة دراسة بيلروري، من تاريخ الهرمسية والصوفية في الإسلام، ترجمة د/ لويس صليبا، دار ومكتبة بيبليون، ط4، بيروت، 2016.

خامساً: خطة البحث:

هذا البحث يتكون من مقدمة وخاتمة وقائمة بالمصادر والمراجع مبثوثين.

أما المبحث الأول: أثر الهرمسية على التصوف.

ويتكوّن من مطلبين:

المطلب الأول: مَنْ هم الهرمسية؟

المطلب الثاني: أثر اليهود في تأسيس عقيدة غلاة الشيعة.

المبحث الثاني: مفهوم المعجزة بين الولاية والنبوة.

ويتكوّن من مطلبين:

المطلب الأول: مفهوم الكهانة وأقسامها:

الفرق بين النبوة والكهانة.

أجناس السحر وأنواعه

المطلب الثاني: مفهوم المعجزة والكرامة

تعريف المعجزة وأشراتها.

الكرامة بين الإثبات والنفي.

" والله الهادي إلى الحق بمنه".

قال تعالى: " قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ "

[الأنبياء/112].

المبحث الأول

أثر الهرمسية على التصوف

المطلب الأول: مَنْ هم الهرمسية؟

إن الدين هو القيام لله بما أمر به (1). والدين عند الله الإسلام، فكل الأنبياء جاءت تحت الناس على الالتزام بالحياة الأخلاقية والقيم الروحية، وهؤلاء الزهاد العباد كانت حياتهم طيبة لأنهم تمسكوا بتعاليم الأنبياء والرسل، فقاوموا الزيغ في المعتقدات وجابهوا الآراء الطارئة الغريبة، كما قاوموا البدع وعلى رأس هؤلاء أتباع إدريس النبي والملقب بهرمس وأتباعه بالهرمسية. قال تعالى: "وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقُصِّصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ فُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ" [غافر/78].

والروايات تختلف اختلافًا شديدًا حول هرمس والهرامسة والمؤلفات الهرمسية، فالروايات العربية القديمة تقول إن هرمس هو النبي إدريس عليه السلام النبي المثلث بالنبوة والحكمة والملك وأحيانًا تميز هذه الروايات بين ثلاثة حكماء باسم هرمس الأول هي الذي اعتبروه سليل كايومارت واعتبروا أنه هو نفسه اخنوخ وإدريس وأنه هو الذي تنبأ بطوفان نوح. أما هرمس الثاني فهو هرمس البابلي وقد عاش في بابل بعد الطوفان وكان أستاذًا ضليعًا في الطب والفلسفة وطبائع العدد. أما هرمس الثالث أو ما يدعون هرمس المصري فولد في صنفس قرب القسطاط وكانت مركزًا للعلم قبل الإسكندرية. (2)

والبعض يرى أن هرمس البابلي هو اسقليبيوس وكان تلميذًا لهرمس الأول، فيرى المبشر بن فاتك في كتابه "مختار الحكم ومحاسن الكلم" (3) أن اسقليبيوس هذا كان تلميذ هرمس وكان يسافر معه، فلما خرجا من بلاد الهند وجاءا إلى فارس، خلفه ببابل ليضبط الشرع فيهم ... وأما هرمس هذا فهو هرمس الأول، ولفظه أرمس وهو اسم عطارد، ويسمى عند اليونانيين أطرسمين، أو عند العرب إدريس، وعند العبرانيين أخنوخ. وهو ابن يارد بن مهلائيل بن قينان بن أنوش بن شيت بن آدم عليهما السلام. ومولده بمصر في مدينة منف. وكانت مدته على الأرض اثنتين وثمانين سنة. وقال غيره، ثلاثمائة وخمسة وستين سنة ... وقال المبشر بن فاتك: وكان هرمس "إدريس" عليه السلام رجلًا آدم اللون، تام القامة، أجلح، حسن الوجه، كث اللحية، مليح

(1) ابن القيم، أعلام الموقعين، ج2، تحقيق د/ محمد عبد السلام، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1991م، ص119.

(2) د/ نجيب بلدي، تمهيد لتاريخ مدرسة الإسكندرية، دار المعارف، ط2، القاهرة، د. ت، ص65.

(3) ابن فاتك، مختار الحكم ومحاسن الكلم، تقديم وتحقيق د/ عبد الرحمن بدوي، المؤسسة العربية، ط2، بيروت، 1980م،

التخاطيط، تام الباع، عريض المنكبين، ضخم العظام، قليل اللحم، براق العين أكحل، متأنياً في كلامه، كثير الصمت، ساكن الأعضاء، إذا مشى أكثر نظره إلى الأرض، كثير الفكرة، به حدة وعبسة، يحرك إذا تكلم سبابته.

وهذه أوصاف فعلاً تنطبق على نبي بل إن شئت أن تقول بأنها صفات ولي من أولياء الله الصالحين، فلقد كان سياحاً طويلاً له الأرض، كثير التأمل والصمت، فمن لم يفن عن نفسه، وسره، ورؤية الخلق، لا يحيا سره لمشاهدة الخيرات والمنن(1)، وسئل عمرو بن عثمان عن معنى: "أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ" [الزمر/21] قال: لما يقع نظر العبد على عظمة علم الوجدانية، وجلال الربوبية، يعمى عن أي شئ بعد ذلك. (2)

ويؤكد على هذه الرواية البلخي(3)، أن هرمس الأول هو إدريس والمثلث بالنعم، وكان قبل الطوفان، ومعنى هرمس، لقب، كما يقال قيصر وكسرى. وتسمية الفرس في سيرها للهجده، وتقديره ذو عدل، وهو الذي تذكر الحرائية نبوته وتذكر الفرس أن جده كيو مرث، وهو آدم. ويذكر العبرانيون أنه أخنوخ وهو بالعربية إدريس ... ويستمر البلخي(4) في وصفه بأنه أول من تكلم في الأشياء العلوية من الحركات النجومية، وأن جده كيو مرث، وهو آدم عليه السلام، علم ساعات الليل والنهار، وهو أول من بنى الهياكل ومجد الله تعالى فيها، وأول من نظر في الطب وتكلم فيه. وأنه ألف لأهل زمانه كتباً كثيرة، بأشعار موزونة وقوافٍ معلومة بلغة أهل زمانه، في معرفة الأشياء الأرضية والعلوية. وهو أول من أنذر بالطوفان. ورأى أن آفة سماوية تلحق الأرض من الماء والنار. وكان مسكنه صعيد مصر، تخير ذلك فبنى هنالك الأهرام، وبنى مدائن التراب، وخاف ذهاب العلم بالطوفان فبنى البرابي وأشهرهم الموجود بأخميم.

إذن نحن نجدد معظم الروايات تؤكد على أن هرمس لقب لإدريس النبي وهو الأول ومن سكان مصر العليا وبالتأكيد كان يدعو إلى التوحيد وعبادة الله الأحد، فنجد في بدائع الزهور(5) أن الكندي يقول: "كان بمصر من الحكماء هرمس، وهو إدريس عليه السلام، وقد جمع بين النبوة، والملك والحكمة؛ وكان بها من الحكماء، أغاثيمون، وفثياغورس، وهما تلاميذ هرمس،

(1) فريد الدين العطار، تذكرة الأولياء، ج2، مصدر سابق، ص66.

(2) السلمي، طبقات الصوفية، تحقيق د/ نور الدين شريبه، دار الكتاب العربي، ط1، القاهرة، 1953م، ص300.

(3) صاعد، طبقات الأمم، تحقيق لويس شيخو، المطبعة الكاثوليكية، ط1، بيروت، 1912م، ص39.

(4) ابن أبي أصيبعة، كتاب عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق د/ عامر النجار، ج1، دار المعارف، ط1، القاهرة، 1996م، ص186.

(5) محمد بن إياس الحنفي، بدائع الزهور، تحقيق د/ محمد مصطفى، ج1، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط2، القاهرة، د. ت، ص31.

إليهم يعزى علم الكيمياء والنجوم، وعلم السحر والروحانيات والطلسمات، وأسرار الطبيعة؛ ومنهم أرسلوس، وبندقليس، أصحاب الكهانة والسحر؛ ومنهم سقراط، صاحب الكلام على الحكمة.

ربما نكون بين اختياريين، الأول بأن هرمس كان لقباً ذو دلالة توحيد بمعنى أن كل نبي انطبقت عليه النبوة والحكمة والملك أطلق عليه هرمس وعلى أتباعه بالهرامسة، ولكن السؤال هنا هل أتباعه التزموا بالتعاليم التوحيدية التي أتى بها؟

الاختيار الثاني بأن الآيات والعلامات أقصد المعجزات التي ظهرت على يد هرمس "إدريس" ومعظمها كانت تسخير الطبيعة لإدريس، جعلت أتباعه "الهرامسة" يهتمون لفهم الطبيعة والتحكم فيها، فجعلتهم يهتمون بعالم السحر ومؤثراته مثل السيمياء والتنجيم، والتي اعتقد بالقدرة على امتحان الطبيعة عن طرق التجارب، وبالتالي آمن الهرامسة بثلاث أقسام للحكمة. (1)

1- الخيمياء: تبحث في أمور تتعلق بتحويل المواد الرخيصة مثل الرصاص إلى معدن نفيس مثل الذهب. وتذهب إلى مستوى بحث أمور التحويل الروحي للحياة، والمادي عن طريق دراسة الولادة والموت والعودة إلى الحياة.

2- التنجيم: زعم أتباع هرمس أنه تعلم التنجيم على يد زرادشت. فهم يؤمنون أن لحركة الكواكب معاني وتأثيرات تتعدى المجال الفيزيائي إذ أنها تمثل فكر الله لذا لها تأثير على الأرض لكنها لا تجبرنا على اتخاذ القرارات. والحكيم هو من يفهم هذه التأثيرات ويتعامل بشكل بناء. ومن ذلك تم اتهام ذو النون المصري بأنه كان منجماً، فلقد كان من المعنيين بحل رموز البرابي في أخميم، كثير التطواف بها، وأنه وفق إلى حل كثير من النصوص والصور والنقوش المرسومة عليها. (2) كما أن الأستاذ نيكلسون (3) لا يثق فقط في علم ذي النون بلغة قدماء المصريين وأسرارهم ورموزهم، بل يرتب على ذلك الصلة بين علم الكيمياء وبين الأسرار المدونة في رسوم المصريين القدماء اعتماداً على الحديث المغلوط أو الغير مؤكد الذي ذكره أصحاب المقالات عن هرمس المزعم الذي اعتبره أول من بنى الأهرام ومدائن البرابي، وصار نيكلسون على هذا الفرض المغلوط وأكد أن ذا النون من أصحاب السيمياء والسحر، وربط بين الكرامات والسيمياء والتصوف حتى وصل إلى أن المتصوفة وصلوا إلى هذا السلوك من باب السيمياء والسحر لا الكيمياء العملية بالمعنى العلمي في مدرسة جابر بن حيان تلك المدرسة التي خلصت العلم لأول مرة من ستر

(1) لويس مينار: هرمس المثلث العظيمة أو النبي إدريس، ترجمة د/ عبد الهادي عباس، دار الحصاد، ط1، دمشق، 1998م، ص75.

(2) المسعودي، مروج الذهب، ج2، مصدر سابق، ص 401.

(3) نيكلسون، في التصوف الإسلامي وتاريخه، ترجمة د/ أبو العلا عفيفي، مرجع سابق، ص35.

الكهانة والشعوذة إلى العقل التجريبي. إذن، فقد أخطأ نيكلسون في التسليم بأن ذا النون من طبقة جابر بن حيان على أساس الوهم القائل بأن كل من اشتغل بالسيمياء مطية إلى الطريق الصوفي، أو أن جابر بن حيان كان يلقب بالصوفي.

3- السيمياء Theurgy: وهو السحر الإلهي الذي يعتمد على قدرته الإلهية للتحكم بالطبيعة. وهو عكس السحر الأسود الشرير. فهو مصطلح يعني علم وفن العمل الإلهي - من منظورهم - وهؤلاء يقول المولى عز وجل فيهم: "لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السَّحَرَ وَأَنْتُمْ تَبْصِرُونَ" [الأنبياء/3].

لدرجة أن المتصفح في رسائل إخوان الصفا وهم بلا شك شيعة باطنية "يرى أنهم يجعلون معرفة السحر من أرفع المعارف وبه تنتهي رسائلهم، بل يصل الأمر عند إخوان الصفا من اعتبار المتغافل عن السحر ولا يعمل به هم المتعالمون والأحداث من الحكماء، فمن ينكر السحر إما أبله قليل العقل، أو امرأة رعناء، أو عجوزاً خرفة بلهاء. فإن النفوس الإنسانية لا تتكامل إلا بالسحر، لذلك فقد قدموا في خمسين رسالة فنون العلم وغرائب الحكمة واختصوا السحر وفنونه وحده في الرسالة الحادية والخمسون وبالتحديد في الرسالة الحادية عشرة من العلوم الناموسية والشرعية في ماهية السحر والعزائم والعين وهذه الرسالة تندرج تحت القسم الرابع الذي يحمل عنوان العلوم الناموسية الإلهية والشرعية الدينية. وهذا الترتيب لم يكن عشوائياً، وإنما: "رتبناها بحسب ما تقتضيها درجات المتعلمين ومراتب الطالبين المستفيدين ... فكلما ارتقت نفسه في العلم إلى درجة درجة إلى مرتبة مرتبة في المعرفة رقي إلى ما بعدها ودفع إلى ما يتلوها، إلى أن تبلغ نفسه إلى حد كمالها". (1)

الخطورة من هذا النص أنه يجعل من اكتمال النفس قدرة على الإتيان بالخوارق وهو مفتاح لكل من يسلك طرق السحر، وأفعال السحر قوة تكتسب بالتعليم، فكل سيميائي هو ساحر متدرب ومتعلم باكتساب خبرات السيمياء. وبذلك فالكرامات والمعجزات هي في الأصل قوى سحرية. وهنا يتحول عمل الكيمياء من البحث العلمي التجريبي إلى أوهام وحيل السيميائي من تحويل المواد والمعادن المختلفة فيما بينها بوجه عام، وتحويل الوضيع منها إلى معادن وجواهر نفيسة بوجه خاص، ونجد هذا الموقف في كتاب "الطبيعة والتصوف" (2) وغيره من المؤلفات المنسوبة إلى بولس المصري والتي كتبت في القرن الثاني قبل الميلاد. ويقوم تحويل المعادن هذا على مبدئين رئيسيين: أحدهما مبدأ التجارب والتناثر، الذي يتألف أو تتفصل بمقتضاه جميع

(1) إخوان الصفا، الرسائل، المجلد الرابع، دار صادر، بيروت، د. ت، ص284.

(2) د/ عبد الفتاح أحمد فؤاد، الأصول الرواقية في الفلسفة الإسلامية، دار الوفاء، ط1، الإسكندرية، 2003م، ص 258.

الجواهر أو الطبائع القائمة في العالم، وهذا التجاذب ليس إلا نوعاً من التأثير السحري القائم على مبدأ التعاطف، أما المبدأ الثاني: فهو مبدأ وحدة المادة الأولى. ويشرح ذلك السهروردي الإشراقي، بأن انخراق العادة غير محال، فمن الممكن أن يتعلم الإنسان في وقت قصير هذا العلم لشدة اتصاله بالعقل الفعال أو النفوس الفلكية ويحدث ذلك بالتخلي عن الانتقاش بالشواغل البدنية فتكتمل النفس كما للأنبياء، وبعض الأولياء، فلا تدعن نفوسهم للمادة الشاغلة، فيتصلون بالنفوس الفلكية، ويطلعون على المغيبات، وقد يتوصلون إلى ذلك بالرياضات المهيبة للأخلاق، المذكية للنفس، المقربة لها إلى عالمها. (1)

والربط هنا بين التصوف وتحويل المعادن بتأثير القوى السحرية ربط خبيث وادعاء باطل مستغلين دعوة الأنبياء والرسول جميعاً إلى تطهير النفس عن طريق التجرد من الشهوات الجسمانية والميول الحسية وممارسة الفضائل من عفة، وعدل، وحكمة.

انظر كيف بدأ فكر القرامطة (2) وهم جماعة ظهروا في الكوفة ولنا أن نعرف بأن الكوفة أسست على أطلال مدينة بابل القديمة والتي ظهر بها اسقليبيوس الذين لقبوه بهرمس الثاني، والقرامطة كان ابتداء أمرهم قدوم رجل من ناحية خوزستان إلى سواد الكوفة ومقامه بموضع منه يقال له النهرين، يظهر الزهد والتشف، ويسف الخوص، ويأكل من كسبه، ويكثر الصلاة. وبهذا الشكل والرسم ألبسوا على كثير من العامة بأنهم أولياء لله وأنه قد صدر عنهم مكاشفة في بعض الأمور أو بعض التصرفات الخارقة للعادة، مثل أن يشير إلى شخص فيموت، أو يطير في الهواء إلى مكة أو غيرها أو يمشي على الماء أحياناً، أو يملأ إبريقاً من الهواء، أو ينفق بعض الأوقات من الغيب أو أن يختفي أحياناً عن أعين الناس، أو أن بعض الناس استغاث به وهو غائب، أو ميت فراه قد جاءه ففضى حاجته، أو يخبر الناس بما سرق لهم، أو بحال غائب لهم أو مريض أو نحو ذلك من الأمور، وليس في شيء من هذه الأمور ما يدل على أن صاحبها ولي لله. (3) فعن أبي هريرة يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "يكون في آخر الزمان دجالون كذابون، يأتونكم من الأحاديث بما لم تسمعوها أنتم ولا آبائكم. فإياكم وإياهم. لا يضلونكم ولا يفتنونكم". (4)

وبذلك أصبحت هذه الدعوة الخبيثة عند غلاة الشيعة الباطنية -إخوان الصفا والقرامطة- اعتبار السحر من العلوم المفيدة في الحياة الدنيا، وتعتبر العلوم الباطنية من سحر وعزائم

(1) السهروردي، اللحات في الحقائق، تحقيق د/ محمد أبو ريان، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1983م، ص218.

(2) الطبري، تاريخ الطبري، ج10، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، ط2، القاهرة، د. ت، ص23.

(3) ابن تيمية، أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، تحقيق د/ مصطفى العدوي، مكتبة الإيمان، المنصورة، د. ت، ص89.

(4) صحيح مسلم، باب النهي عن الرواية عن الضعفاء، ج1، ص12.

وسيمياء وحيل من أنفع العلوم للإنسانية. وبذلك يحق للإنسان إلى الشروع باستخدام السحر لغايات مادية كالرفاهية والغنى "الخيماء" والصحة "السيمياء". والسحر الكبير هو الذي يبقى متلازمًا مع المعرفة التي تجعل الإنسان يعي كينونته الحقيقية، وبه يتم التشبه بالإله بقدر طاقة الإنسان. هذا السحر، القائم على مفهوم معين لعوالم الملائكة، والذي يشرح قدرة الأولياء على اتيان الكرامة والأنبياء على الاتيان بالمعجزة.

فلو ذهبنا إلى الفرض الأول بأن هرمس كان لقبًا لبعض الأنبياء، فلو فرضنا أن إدريس عليه السلام كان أول من أطلق عليه لقب هرمس، وهذا اللقب يدعو إلى التوحيد والزهد في متاع الدنيا وهي دعوة مشتركة لكل الأنبياء، فلنرى أهم صفات إدريس عليه السلام في القرآن الكريم قال تعالى "وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ (85) وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ" [الأنبياء/85/86]. فالقرآن يصف إدريس بصفات الصبر والصلاح ولم يصف بأنه صاحب صنعة، أما الموضع الثاني في القرآن، فكان في سورة [مريم/56، 57]: "وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا (56) وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا". وجاء في تفسير جامع البيان للطبري (1) في معرض تفسيره لهاتين الآيتين... أن ابن عباس سأل كعبًا عن تفسير "وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا" قال كعب: أما إدريس فإن الله أوحى إليه إني رافع لك كل يوم مثل عمل جميع بني آدم، فأحب أن تزداد عملاً فأتاه خليل له من الملائكة فقال إن الله أوحى إلى كذا وكذا فكلم لي ملك الموت فليؤخرني حتى أزداد عملاً فحملة بين جناحيه ثم صعد به إلى السماء فلما كان في السماء الرابعة تلقاهم ملك الموت منحدراً فكلم ملك الموت في الذي كلمه فيه إدريس فقال وأين إدريس فقال هو ذا على ظهري، قال ملك الموت فالعجب بعثت أقبض روح إدريس في السماء الرابعة فجعلت أقول كيف أقبض روحه في السماء الرابعة وهو على الأرض فقبض روحه فذلك قول الله تعالى "وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا". وجاء في تفسير النسفي (2) للآية: إنه اخنوخ وتعني الملهم وأول مرسل بعد آدم وأول من خط بالقلم وخاط اللباس ونظر في علم النجوم والحساب واتخذ الموازين والمكاييل والأسلحة ويقال سمي إدريسًا لكثرة دراسته كتب الله.

ويؤكد على ذلك ابن كثير في البداية والنهاية. (3) بأنه أول من أعطى النبوة بعد آدم ويقول أيضًا أنه ثبت في الصحيحين في حديث الإسراء أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، مر به وهو في السماء الرابعة. ومن المشتهر من صفاته الورع وتعميره على الأرض 365 سنة. أما القبطي فيقول: "بأنه خرج من مصر وجاب الأرض كلها ثم عاد إليها ورفع الله بها وأنه أخذ في

(1) الطبري، جامع البيان، ج1، مؤسسة الرسالة، ط1، بيروت، 1994م، ص121.

(2) النسفي، التفسير، ج3، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1980م، ص30.

(3) ابن كثير، البداية والنهاية، ج1، تحقيق د/ حسان عبد المنان، بيت الأفكار الدولية، بيروت، 2004م، ص167.

عمره يعلم شيث بن آدم وهو جد أبيه ... وأنه دعا إلى دين الله والقول بالتوحيد وعبادة الخالق وتخليص النفوس من العذاب في الآخرة بالعمل الصالح وحض على الزهد في الدنيا والعمل بالعدل وأمر بالصلاة والصيام والزكاة والطهارة من الجناحة وحرم لحم الحمار والكلب وحرم السكر من كل شيء. (1)

إن إدريس "هرمس" مصري (2) ورع تقي صابر عابد يعلم العلوم ويخط بالقلم ومتعرف على العلوم، وهذا الذي قرب بين التصوف والكيمياء.

هذه هي الروايات الأقرب للصواب وتتوافق مع وصف القرآن الكريم، إلا أن رواية الطبري في تاريخه حاولت أن تجعل من إدريس عليه السلام سريانياً وبالتالي ينفي عنه مصريته، لأن اللغة المصرية كانت الهيروغليفية وليست السريانية، وربما كان متأثراً برواية متضاربة عند صاعد الأندلسي الذي مرة يجعل إدريس كلدانياً ومرة يجعله مصرياً: "الكلدانيون وهم السريانيون والبابليون وهؤلاء يمثلون العراق والشام وجزيرة العرب واليمن ... وهؤلاء كانت بلادهم وملكها واحد ولسانها واحد سرياني وهو اللسان القديم لسان آدم عليه السلام وإدريس عليه السلام". (3) وهناك روايات أخرى لا يلتفت إليها مثل رواية كارلونيلىنو (4)، التي تقول أن هرمس حكيم مصري خرافي لم يكن له وجود أبداً. فكثرت فيه الخرافات بين العرب في عهد الإسلام. وكذلك قول "لاكتانس" (5) إن هرمس ينظر إليه كواحد من المتنبيين الملهمين، واشتهرت كتاباته كأثار موثوقة للتبولوجيا "المعتقدات" المصرية القديمة. وقد قبل هذا الرأي كل من مارسيل فيسين وباتريزي وغيرهم من مفكري عصور النهضة.

حتى إن دالاس بدج (6) يرى أن ثوت "تحوت" كان أول هرمس "إدريس" كتب على المسلات أو الأعمدة مبادئ العلوم في لغة وصفات هيروغليفية. وتحوت هو الذي يحسب في السماء والذي يعد النجوم والذي يقيس الأرض ويحصي كل ما عليها وأن قلب رع قد انبثق من الإله تحوت. مركز عبادة الإله الرئيسية كانت "خيمنو" تلك المدينة التي يسميها اليونانيون هيرموبوليس والعرب أشمون.

(1) القفطي، تاريخ الحكماء، مصدر سابق، ص57.

(2) للمزيد الرجوع إلى اليعقوبي في تاريخه، المجلد الأول، ص11، ط1، بيروت، 1980م وكذلك عند ابن قتيبة في كتاب المعارف، ج2، وكذلك في تاريخ الطبري، ج1، وكذلك دائرة المعارف الإسلامية تحت مادة إدريس، وكذلك الشهرستاني في كتاب الملل والنحل.

(3) صاعد، طبقات الأمم، مصدر سابق، ص6.

(4) كارلونيلىنو، علم الفلك وتاريخه عند العرب، طبعة روما، 1912م، ص124.

(5) مينارد، هرمس مثلث العظمة، مرجع سابق، ص15.

(6) دالاس بدج، آلهة المصريين، ترجمة: محمد حسين يونس، مكتبة مدبولي، ط1، القاهرة، 1998م، ص478/460.

وبذلك يرى بدج أن اليونانيين كانوا على حق عندما عبروا عن حكمة وعلم تحوت عندما قارنوه بهرمس. فقد وصفوه بأنه مخترع علوم الفلك والتنجيم وهذا وصف خاطئ لا يليق أن يوصف به إدريس عليه السلام وبناءً على هذا الفرض الخاطئ بنيت وحكيت أفكار كلها سفسطة وأقرب إلى الأوهام.

ويتحول هرمس في نظر الغرب والمستشرقين بأنه من الآلهة أو يعتبرونه من البشر المؤلهين من العامة " الأولياء " وهرمس: أصبح المسمى الذي أطلقه اليونان على المعبود جوتي رب الأشمونيين، منعوتًا بمثلث العظمة كناية عن فائق علمه وعظيم مكانته، وتسميته "بوامندريس" (1) راعي الإنسان العقل الأسمى. وهو الذي يرشد الإنسان لمعرفة الله ومعرفة نفسه والكائنات الأخرى ومن هذا المفهوم ظهرت فكرة " الإنسان الكامل " عند بعض فلاسفة الصوفية. فإن هرمس - بهذا المفهوم - هو صوت العلم والعقل، فكل إنسان يكتب ويعرف العلوم فهو هرمس، ففي الكتب الهرمسية، افتترضوا أن التصوف قد اكتشف وتم اكتسابه بالعقل أو من قبل الله الذي هو مشخص فيه. فإن هرمس الذي يدير الكلام، هو حسب التقليد القديم، مشترك في كل الكهنة، وهو الذي يقود إلى العلم الحقيقي، وأنه واحد في الكل. فتارة تكون إيزيس هي التي تنتقل إلى ابنها حورس التلقين الذي تلقته عن جدها الكبير كاميفيس ومن هرمس، أمين سر الآلهة؛ وعلى الأغلب أن هرمس هو الذي يلقي تلميذه اسقليبيوس أو ابنه تات. وأحيانًا يلعب هرمس دور التلميذ، والملقن يكون العقل أو بوامندريس. ورسالة بورفير موجهة إلى النبي أنيبو وهذا الاسم أنيبو أو انوبيس هو اسم إله مائل للإغريق بهرمس.

نذهب سريعًا إلى أن هذه التعاليم الصوفية والدينية أصبحت الأساس الذي اتخذته كل من الفلاسفة اليونانيين المعروفين فيثاغورث وأفلاطون، لدرجة أن أشخاص محاوره فيدون (2) والمتحاوران مع سقراط هما سيمياس وسيبيس وكلاهما من طيبة من مصر. وبعد أن تابعا في وطنهما دروس فيلولاوس الفيثاغورثي، قدما إلى أثينا ليحضر دروس سقراط. وكانا شابين من أسرة ذات ثراء. بل إن فيدون الإليسي نفسه قد وقع أسير في الحرب التي أثارتها اسبرطة وأثينا ضد وطنه في عام 301 ق.م وأخذ كعبد رقيق واشتره سيبيس.

إن فيثاغورث هو نقطة الوصل بين الحضارة الشرقية والغربية عامة وهرمس على الخصوص ولقد شارك أفلاطون أستاذه سقراط في الأخذ عن فيثاغورث. والسؤال هنا هل عاصر فيثاغورث "هرمس" إدريس عليه السلام وأخذ عنه؟! الإجابة تؤكد على أن فيثاغورث أخذ الحكمة

(1) مينارد، هرمس مثلث العظمة، مرجع سابق، ص 81/35/34.

(2) أفلاطون، فيدون، مصدر سابق، ص 216.

عن أصحاب سليمان بن داود عليهما السلام بمصر حين دخلوا إليها من بلاد الشام، وكان قد أخذ الهندسة قبلهم عن المصريين ثم رجع إلى بلاد اليونان وأدخل عندهم علم الهندسة، وعلم الطبيعة وعلم الدين إن فيثاغورث كان بعد بندقليس بزمان. وكان بندقليس في زمن داود عليه السلام. وأخذ الحكمة عن لقمان الحكيم بالشام. (1) إذن ادعى فيثاغورث أنه استفاد ذلك من مشكاة النبوة. (2)

المؤكد أن فيثاغورث لم يعاصر هرمس الأول "إدريس عليه السلام" ولكن كان هناك بعد الطوفان اثنان أطلق عليهما لفظ هرمس أحدهما هرمس البابلي والآخر هرمس المصري، واعتقد أن هرمس البابلي هو اسقليبيوس، فهو من أشهر العلماء الكلدانيين. وذكر عنه البلخي في كتاب "الألوف" أنه هو الذي صحح كثيرًا من كتب الأوائل في علوم النجوم وغيرها ... وقد وصل إلينا من مذهب هرمس البابلي ما دل على تقدمه في العلم من ذلك مذهبه في مطارح شعاعات الكواكب ومذهبه في تسوية بيوت الفلك. ومن ذلك كتبه في أحكام النجوم مثل كتاب الطول وكتاب العرض وكتاب قضيب الذهب. (3)

ومن هنا يبدأ التداخل الشديد هل اسقليبيوس "اسكليبيوس" تلميذ إدريس عليه السلام "هرمس الأول" وكان قبل الطوفان؟ أم كان تلميذ لهرمس آخر - بحسب رواية ابن أبي إصبيعة - وكان مصري أيضًا ولكن كان بعد الطوفان؟!

كان من الضروري قبل أن أجيب كان لابد من طرح سؤال من كان بعد الطوفان من الأنبياء شبيه الحال بإدريس عليه السلام؟! فكانت الإجابة في قوله تعالى: "فَقَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ (79) وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ (80) وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ" [الأنبياء/79، 80، 81].

أعتقد أن داود وابنه سليمان وأيضًا سيدنا موسى وأخوه هارون كانوا بعد الطوفان وتحدث القرآن صراحة عن تعليم داو عليه السلام علم الصنعة وكذلك موسى عليهما السلام وذكر اسم سليمان وارتبط اسمه بالسحر ونفاه القرآن عنه "وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ

(1) صاعد، طبقات الأمم، مصدر سابق، ص39/23/22.

(2) ابن أبي أصيبعة، كتاب عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ج1، مصدر سابق، ص35 .

(3) صاعد، طبقات الأمم، مصدر سابق، ص19.

عَلِمُوا لَمَنْ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ" [البقرة/102].

فوجود السحر في أهل بابل وهم الكلدانيون من النبط والسريانيين فكثير، ونطق به القرآن الكريم وجاءت به الأخبار. وكان أيضًا السحر ببابل ومصر أزمان بعثة موسى عليه السلام. ولهذا كانت معجزة موسى عليه السلام من جنس ما يدعون ويتناغون فيه، وبقي من آثار ذلك في البراري بصعيد مصر شواهد دالة على ذلك. (1)

هل موسى هو هرمس الثاني؛ ولا أحد ينكر مصريته! وهل داود هو هرمس الثالث وسليمان هو هرمس الرابع؟! وهل اسقليبيوس أحد أتباعهم وكان من أسرى بابل؟! مبدئيًا تنتقي رواية بأن اسقليبيوس تلميذ لهرمس "لإدريس عليه السلام" وهي رواية المبشر بن فاتك في كتاب مختار الحكم ومحاسن الكلم "فهو لفظ يوناني وكان البارع بصناعة الطب في اليونانيين، علمها بنيه، وحظر عليهم أن يعلموها الغرباء. (2) لذلك أعتقد بأنه كان تلميذًا أو أحد أتباع داود عليه السلام، أو ربما يكون هو داود عليه السلام، لأننا قلنا بأن لفظ هرمس كان لقبًا يجمع بين الملك والعلم والنبوة، فلم يرد لفظ الصناعة "علم الكيمياء" في القرآن إلا لداود عليه السلام، فانتقل من بابل إلى مصر، فيزعم أهل صناعة الكيمياء أن أول من تكلم على علم الصناعة هرمس الحكيم المنتقل إلى مصر عند افتراق الناس عن بابل، وأنه ملك مصر وكان حكمًا فيلسوفًا، وأن الصناعة صحت له، وله في ذلك عدة كتب، وأنه نظر في خواص الأشياء وروحانياتها، وصح له ببحثه ونظره علم صناعة الكيمياء. (3)

ومن صفات داود عليه السلام أنه كان صوامًا قوامًا، فإن أفضل الصيام كان صيام داود عليه السلام، وكانت له ركعة من الليل يُبكي فيها نفسه، ويبكي ببكائه كل شيء، ويصرف بصوته الهموم والمحموم". (4) وقد وهبه الله من الصوت العظيم ما لم يعطه أحدًا، بحيث أنه كان إذا ترنم بقراءة كتابه يقف الطير في الهواء، ويسبح بتسبيحه، وكذلك الجبال تجيبه وتسبح معه، كلما سبح بكرة وعشيًا.

(1) ابن خلدون، المقدمة، ج3، مصدر سابق، ص1034.

(2) المبشر بن فاتك، مختار الحكم ومحاسن الكلم، مصدر سابق، ص57.

(3) ابن النديم، الفهرست، ج1، مصدر سبق، ص351.

(4) أخرجه مسلم في الصحيح برواية عبد الله بن عمرو، ص1159 وكذلك أخرجه البخاري في الصحيح، ص1131.

هذا الوصف يقربنا لمفهوم التصوف عند علماء المسلمين، نهيك عن إجادة سيدنا داود علم الصنعة، وهذا ما يدفعنا لنقول بأن مقولة فيثاغورث "الوجود عدد ونغم" (1) أصولها الدينية كانت عند داود عليه السلام وأن هذا المفهوم تطور عند المسلمين. فإن سيمياس الفيثاغورثي يؤكد أن النفس توفق بين العناصر المؤلفة للجسد الحار والبارد واليابس والرطب، فإذا اختل هذا الامتزاج، فسد الإنسان - جسد ونفس - أي أن النفس من حيث هي نغم، هي تركيب أو ائتلاف الأوتار المكونة للجسم. هذا كلام قاصر لأنه لا يميز بين النفوس الخيرة والنفوس الشريرة. (2) وتغلب المسلمون على سذاجة هذا الوصف بالقول أن كيمياء السعادة هي التي تغلق باب الحواس وعلائق الحواس وتفرغ القلب من شهوات الدنيا، فيطالع جواهر عام الملكوت، ويقال له "فَكشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ" [ق/2]. (3)

وربما يكون هرمس الثاني هو موسى عليه السلام وكان قبل داود بحوالي 500 عام، لذلك قالت طائفة من أهل صناعة الكيمياء: إن ذلك كان بوحي من الله جل اسمه إلى جماعة من أهل هذه الصناعة، وقال آخرون: كان هذا بوحي من الله تعالى إلى موسى بن عمران وإلى أخيه هارون عليهما السلام، وأن الذي كان يتولى ذلك لهما قارون، وإنه لما كثر ما عنده من الذهب والفضة كنز الكنوز، وأن الله تبارك وتعالى لما رآه تجبر وتكبر بما عنده من الأموال أخذه بدعاء موسى عليه السلام. (4)

ونفهم من ذلك أو يجب أن يعلم: أن صدق مدعي النبوة لم يثبت بمجرد دعواه، وإنما يثبت بالمعجزات، وهي أفعال الله تعالى الخارقة للعادة المطابقة لدعوى الأنبياء، وتحديدهم للأمم بالإتيان بمثل ذلك. (5) .. يتبين من ذلك ويتضح: أن موسى عليه السلام جاء في زمان سحرة وسحر، فتحداهم بقلب العصا حية، فعلم المحققون منهم في السحر، أن ذلك خارج عن قبيل السحر؛ لعجزهم عن ذلك، وخرقه لعادة السحر، فسارعوا إلى الإيمان، وهذا يدل على فضل العلم من أي نوع كان، فإنه أول من سارع إلى الإيمان السحرة، لعلمهم بالسحر، فكان في علمهم ذلك - وإن كان باطلاً - فضل كبير على غيرهم من قومهم ممن لا يعلم السحر.

(1) راسل، تاريخ الفلسفة الغربية، ج1، ترجمة د/ ذكي نجيب محمود، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ط1، القاهرة، 1957م، ص59.

(2) أفلاطون، فيدون، مصدر سابق، ص21، 22.

(3) الغزالي، كيمياء السعادة، مصدر سابق، ص88.

(4) ابن النديم، الفهرست، ج1، مصدر سابق، ص352.

(5) الباقلاني، الإنصاف، تحقيق الكوثري، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 2000م، ص59/58.

ولما كانت المعجزة بإمداد روح الله والقوى الإلهية فلذلك لا يعارضها شيء من السحر وانظر شأن سحرة فرعون مع موسى في معجزة العصا كيف تلقفت ما كانوا يأفكون، وذهب سحرهم واضمحل كأن لم يكن. وكذلك ما أنزل على النبي صلى الله عليه وسلم في المعوذتين "وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ" [الفلق/4]، قالت عائشة - رضي الله عنها -: "فكان لا يقرؤها عن عقدة من العقد التي سُحر فيها إلا انحلت. فالسحر لا يثبت مع اسم الله وذكره.(1)

ولماذا نذكر الصنعة والسحر عند موسى؟ وما علاقة ذلك بالتصوف؟! لو نظرنا إلى موقف التوراة من موسى وموقف القرآن من قصة موسى عليه السلام نجدهما مختلفان تمامًا، فموسى التوراة جبار عنيف، يقتل ويقاتل، أما قصة موسى في القرآن ففيها أجمل المعاني النفسية والروحية. ومن العجب أن تلهم قصته بعد ذلك كثيرًا من المعاني الصوفية الرقيقة، "فخلع النعلين في الوادي المقدس" و"النار المقدسة" و"طوى الكون" و"جبل الطور" و"الخضر وموسى" و"موسى الكليم" و"مقام لن تراني" أثارت أجمل النظريات الصوفية، بل نرى الحلاج فيما بعد - وقد قطعت قدماه وذراعاه بسيف الشرع- ينادي بأية موسى القرآنية "وَعَجَلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى" [طه/84] فموسى القرآن غير موسى التوراة، لقد وضعه القرآن في نسق الأنبياء الإنسانيين الذي تنبثق منهم أغنيات الروح، بينما وضعه اليهود منذ القدم وحتى الآن قاتلاً جباراً، يقتل من يشاء من غير اليهود، ولا تحركه غير عاطفة اليهود، ولا يتجه إلا إلى اليهود. جعله الإسلام "روحاً" وجعله اليهود "مادة" جعله الإسلام "نبيًا إنساناً" وجعله اليهود "نبيًا وصنمًا" "قاتلاً سفاحاً" يقتل من يشاء ويذبح من يشاء، ويخادع من يشاء، لبني إسرائيل العتاة، سائرًا في التيه أربعين عامًا، يزمجر للكون ويرعد، ويهدد أعداء بني إسرائيل بالفناء. (2)

وأخيرًا سيدنا سليمان الذي ارتبط اسمه بالملك والحكمة والنبوة، فلقد جمع أيضًا مثلث العظمة مثله مثل إدريس عليه السلام، فهو أيضًا "هرمس" وأتباعه هرامسة، واتصل به اليونان وعلى رأسهم فيثاغورث. كما أن سيدنا سليمان ارتبط اسمه أيضًا بعالم الجن، فيقال أنه أول من استعبد الجن والشياطين واستخدمهما، ويقال أن سليمان (3) دخل عليه سبعين عفريت، وأن سيدنا سليمان جلس وأحضر رئيس الجن والشياطين واسمه فُقُطُس وعرضهم - أي السبعين عفريت - فعزفه فُقُطُس اسم واحد واحد منهم، وفعله في ولد آدم، وأخذ عليهم العهد والميثاق، فإذا أقسم عليهم بذلك العهد أجابوا وانصرفوا. لذلك زعم المعزّمون والسحرة أن الشياطين والجن والأرواح تطيعهم وتخدمهم وتتصرف بين أمرهم ونهيهم. فأما المعزّمون ممن ينتحل الشرائع، فزعموا أن

(1) ابن خلدون، المقدمة، ج3، مصدر سابق، ص1038.

(2) د/ على سامي النشار، نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، ج1، مصدر سابق، ص66.

(3) ابن النديم، الفهرست، مصدر سابق، ص309.

ذلك يكون بطاعة الله جل اسمه، والابتهاال إليه، والإقسام على الأرواح والشياطين به وترك الشهوات ولزوم العبادات، وأن الجن والشياطين يطيعونهم، إما طاعة لله جل اسمه لأجل الإقسام به، وإما مخافة منه تبارك وتعالى، ولأن في خاصية أسمائه - تقدست - قمعهم وإذلالهم، فأما السحرة فزعمت أنها تستعبد الشياطين بالقرابين والمعاصي وارتكاب المحظورات مما لله - جل اسمه - في تركها رضًا وللشياطين في استعمالها رضًا، مثل: ترك الصلاة والصوم وإباحات الدماء، ونكاح ذوات المحرم، وغير ذلك من الأفعال الشرية. (1)

يجتمع بين هؤلاء الأنبياء: إدريس، وموسى، وداود، وسليمان عليهم السلام جميعًا عدة أشياء النشأة والمكان وهو مصر غالبًا والنبوة والحكم والملك، والحكمة ظهرت في أعمال الكيمياء والطب وتسخير الجن وهذه الأعمال تلمس الجانب الروحي بقوة. وهؤلاء الأنبياء كانوا مبعوثين إلى اليهود، وأوصاف اليهود في القرآن الكريم "وَجَعَلَكُمْ مَلُوكًا" [المائدة/20] وهؤلاء الأتباع كانت صفاتهم الكذب والمراوغة "قُلُوبُهُمْ قَاسِيَةٌ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ" [المائدة/42] و"سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكْأَلُونَ لِلْسُخْتِ" [المائدة/42].

وبذلك على أيديهم تحولت الكيمياء إلى سيمياء وأرادوا أن يجعلوا السحر والتنجيم في باب المعجزة والكرامة لذلك وصفهم القرآن الكريم بأنهم محرفون لأصول الأشياء، فيرجع بذلك ظهور الكهانة تاريخيًا إلى مرحلة ظهور الأنبياء عند اليهود (2)، فقد اشترك الكهنة مع الأنبياء حينئذ بادعاء الوحي وتقديم النصائح. ولكن الفرق بينهما هو بُعد الأنبياء عن المعابد والهيكل، وانقطاع صلاتهم بالهيكل أو القرابين، ويتضح التمييز بأن الكهانة وظيفة تعارض النبوة في كثير من الأوقات، كما كان النزاع بينهما قائمًا دائمًا، حيث كان الكهنة يحقدون على الأنبياء؛ لتدخلهم في الشؤون الدينية محاولين الانفراد بهذا المنصب "وليس الخلاف الذي حدث بين عيسى عليه السلام وكهنة الهيكل إلا حلقة من حلقات مماثلة بين الأنبياء والكهنة.

واعتقد أن اسقليبيوس هو أول هؤلاء اليهود الكهان، وأنه أول المحرفين لمعجزات الأنبياء وأول الممخرقين، فلقد ادعى أنه طبيبًا يتلقاه من الإله، ويصفه جالينوس بأنه ملكًا وليس إنسانًا ويصفه ابقراط بأن الله رفعه في الهواء في عمود من نور، وكان اليونانيون يستشفون بقبره. وذكر أفلاطون في كتابه المعروف "بالنواميس" عن اسقليبيوس أشياء عدة من أخباره بمغيبات وحكايات عجيبة ظهرت عنه بتأييد إلهي، وشاهدها الناس ... وفي المقالة الثالثة من كتاب السياسة ذكر أفلاطون وأكد أن اسقليبيوس وأولاده كانوا عالمين بالطب. (3)

(1) نفس المصدر السابق، ص308.

(2) د/ أحمد شلبي، اليهودية، مكتبة النهضة المصرية، ط2، القاهرة، 1988م، ص202.

(3) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ج1، مصدر سابق، ص183.

يؤكد القرآن بأن اليهود ماهرين بصناعة تحريف الكلم، فمن الصحيح والثابت أن الكيمياء ارتبطت بالأنبياء كما قلنا، وبالتالي نشأت الكيمياء في أحضان الدين ولم تكن منعزلة عنه. لكن يفعل اليهود فعلتهم وتتحول الكيمياء إلى سيمياء وتصبح السيمياء الطريق المؤدي للانفصال عن نصوص الكتب المقدسة، وتكون المعجزة والكرامة ليست مخصوصة لبعض الأنقياء والصالحين. فما كان من أركان وأسرار النبوة تحول على يد اليهود إلى أداة لتحريف النصوص المقدسة. ويظهر جماعة من الفلاسفة (1) يروجون لذلك مثل فيثاغورث وديمقريطس وأفلاطون وأرسطو وجالينوس وكانوا يعملون بهذه الصنعة ويحاول المستشرق الفرنسي لوري (2) من الضغط ليصل إلى نتيجة مغلوطة وهي أن عملية التحول في السيمياء، تجري وفق مفهوم الأنبياء ... وبالتالي فإن المشروع السيميائي يتفق مع الرؤيا الصوفية الإسلامية، وغدا متجانس معها. وأصبحت فكرة أحدية الكون، بحسب القرآن، قد احترمت: فكل شئ يأتي من الله، ويعود إليه. وبذلك يقدم علم السيمياء على أنه علم مقدس. وهكذا يكون منهج السيميائي أن كل شئ يأتي من جوهر واحد، ويعود إلى الواحد، أي يأتي من مادة فوضوية ليخلق النظام. ثم يفككه تدريجياً، ليصل إلى القيامة الأخيرة.

ولم يكن تراث الإسلام بعيداً عن النزعة التخريبية والتحريفية عند اليهود فظهروا يهوداً ولكن بثوب آخر وهو غلاة الشيعة من باب آخر وهو باب النفاق "وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ" [المائدة/61] وجاء الإسلام وعلمائه ليبطل ذلك كله، واستقرت في العقيدة الإسلامية حقيقة النبوة الصادقة، حيث أورد القرآن الكريم قصص الأنبياء والرسل وصفاتهم وأخلاقهم ورسالاتهم، وتحققت في شخصية الرسول - صلى الله عليه وسلم - صفات الدين الخاتم.

المطلب الثاني: أثر اليهود في تأسيس عقيدة غلاة الشيعة.

ويتمثل التأثير في اتجاهين: الصابئة والغنوصية:

1- الصابئة:

بعد الطوفان فقد صار أهل مصر أخلاطاً من الأمم ما بين قبضي ويوناني ورومي وغيرهم إلا أن جمهرتهم قبط ... وكان أهل مصر في سالف الأزمان صابئة تعبد الأصنام وتدبر الهياكل ثم تنصرت عند ظهور دين النصرانية ولم تنزل على ذلك إلى أن افتتحها المسلمون. (3)

(1) ابن النديم، الفهرست، مصدر سابق، ص352.

(2) لوري، تاريخ الهرمسية والصوفية في الإسلام، مرجع سابق، ص125.

(3) صاعد، طبقات الأمم، مصدر سابق، ص38.

ولاشك أن اليهود عاشوا فترة طويلة في مصر، فكانوا جزءًا من نسيجها الفكري والثقافي، وكذلك نفي اليهود إلى بابل، وهناك تأثروا بلا شك بالكلدان وبالفرس، في طريقة حياتهم، بل في معتقداتهم الدينية. وقد نفذت معتقدات "الزند أفيستا" في إصحاحات العهد القديم: حزقيال وزكريا ودانيال وتركت آثارًا يستطيع الباحثون في العهد القديم أن يجدوها بسهولة ... وبهذه النشأة لم يشارك اليهود في حركة الترجمة أو الاهتمام بالعلوم، فلم نجد أبدًا اسم يهودي واحد، قام بالترجمة، لقد كان اليهود فقط أصحاب علوم سرية وسحرية: السحر والنيرونجات والسيما، مع بعض عناصر من كيمياء بدائية، وامتهن الكثير منهم الطب، فلما جاءت حركة الترجمة، كانوا خلواً من كل استعداد علمي لها، فلم يشاركوا فيها. (1)

إذن الثابت أن اليهود كانوا في بابل وعاشوا في مصر وكان بمصر الفكر الصابئي وفي بابل أيضًا فكونت اليهودية ما يسمى بالقبالا أو الكبالا وهي خليط من الغنوص والفكر الصائبة. وأما الصابئون وهم المتخلفون من أسرى بابل، الذين نقلهم بختنصر من بيت المقدس إليها؛ فإنهم - أي اليهود - لما تصرفوا في الأرض، واعتادوا بقعة بابل، استنقلوا العودة إلى الشام؛ فآثروا المقام ببابل ولم يكونوا من دينهم بمكان معتمد، فسمعوا أقاويل المجوس وصبئوا إلى بعضها، فامتزجت مذاهبهم من المجوسية واليهودية، كحال المنقولين من بابل إلى الشام - أعني - المعروفين بالسامرة. (2) ويوجد أكثر هذه الطبقة، بسواد العراق؛ وهم الصابئون بالحقيقة، وهم متفرون غير مجتمعين، ولا كائنين في بلدان مخصوصة بهم دون غيرهم؛ ومع ذلك، غير متفقين على رأي واحد، كأنهم لا يسندونها إلى ركن ثابت في الدين، من وحي أو إلهام ... وقد يقع الاسم على الحرائية.

بل أن الصابئة الحرائية كانوا يقرؤون في كتاب في التوحيد وهو مقالات لهرمس في التوحيد كتبها لابنه تات والمسمى بأسقليبيوس "هرمس البابلي" لذلك فأنا أرجح بأنه كان من أسرى بابل وليس له علاقة بإدريس النبي، كما أنني أنفي رواية الدكتور النشار بأن مؤلف هذا الكتاب هو أمونيوس ساكاس. (3)

ولك أن تتخيل بأن بابل ستتحول بعد ذلك إلى الكوفة على يد سعد بن أبي وقاص، أي أن الكوفة بُنيت على أطلال مدينة بابل القديمة في عام 17هـ بأمر من الخليفة عمر بن الخطاب. (4) وأيضًا فإن الثلاثة الذين اشتهروا في التاريخ الإسلامي باسم الصوفي ولقبه بادئ

(1) د/ أحمد شلبي، اليهودية، مرجع سابق، ص38.

(2) البيروني، الآثار الباقية عن القرون الخالية، دار نشر خورشيد همدان، ط1، إيران 1378هـ، ص407.

(3) د/علي سامي النشار، نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، ج1، مصدر سابق، ص215.

(4) نفس المصدر السابق، ج2، ص217.

ذي بدء كان اثنان منهم من غلاة الشيعة "يهود" أو مهتمين بالتشيع، كما أن هؤلاء الثلاثة كلهم كانوا من الكوفة موطن الشيعة.

إنّ اليهود وراء الفكر الصابئي وهم الذين تخلفوا ببابل من جملة الأسباط في أيام كورش، ووضعوا مذهباً ممتزجاً من اليهودية والمجوسية والهرمسية ... وظهروا في واسط وسواد العراق ... ومن العجب أن الدعوة الإسماعيلية الباطنية انتشرت في واسط، بل كانت واسط إحدى مراكز أولاد عبد الله بن ميمون القداح، كما أن الكيسانية قد عاشت في سواد العراق وتأثرت بالصابئة وهناك من يرى أن حمدان بن الأشعث المشهور بقرمط كان صابئياً (1) وهم وراء عبادة الأصنام، فأكدوا على هبوط الأرواح في الهياكل.

ومن أسباب عبادة الأصنام: أن الشياطين تدخل فيها، وتخطبهم منها وتخبرهم ببعض المغيبات، وتدلهم على بعض ما يخفى عليهم، وهم لا يشاهدون الشياطين، فجهلهم وسقطهم يظنون أن الصنم نفسه هو المتكلم المخاطب، وعقلاؤهم يقولون: إن تلك روحانيات الأصنام، وبعضهم يقول: إنها العقول المجردة. وبعضهم يقول: هي روحانيات الأجرام العلوية. وكثير منهم لا يسأل عما عهد بل إذا سمع الخطاب من الصنم اتخذته إلهاً، ولا يسأل عما وراء ذلك (2). قال إمام الحنفاء: "وَاجْتُنِبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ (35) رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلُّوا كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ" [إبراهيم 36/35].

ففي مذاهب الشيعة الدروز لا وجود للعجائب والمعجزات الإلهية سوى ظهور المولى سبحانه في تجلياته البشرية المتعددة وفي غيبته وعودته (3) ... فالمولى غاب وظهر بظهورات مختلفات الصور. ولا نعجب لذلك عندما نرى الشيعة الدروز من نسيج المجتمع الصهيوني الآن، فالأصل واحد.

وتوسع غلاة الشيعة في هذه العقيدة توسعاً كبيراً، فيه غلو وفيه إفراط شديد. فالقول بأن العقل الكوني هو أول شئ صدر مباشرة عن الذات الإلهية. والقول بأن في النبي جوهرًا نورانيًا قائمًا به قيامًا حقيقيًا واقعيًا، وضع أول ما وضع في جبهة آدم، وانتقل من آدم على توالي العصور وباستمرار إلى حامل الشريعة الإلهية والرسالة الربانية حتى وصل، بعد أن مر بأجداد النبي، إلى النبي وتجلّى فيه هو نهائيًا. بل الدروز يقولون بأن العقل الكلي هو الإمام حمزة بن علي الزوزني، فيقول: "فأنا أصل مبدعاته وصاحب سره وأماناته المخصوص بعلمه وبركاته أنا

(1) نفس المصدر السابق، ص213.

(2) ابن القيم، إغاثة اللهفان، ج1، تحقيق محمد حامد الفقي، دار المعرفة، ط2، بيروت، 1975م، ص486.

(3) د/ محمد عبد الحميد، صابئة حران والتوحيد الدرزي، دار الطليعة الجديدة، ط1، دمشق، 1999م، ص178.

صراطه المستقيم وأنا بأمره حكيم عليم". (1) وللأسف هذه الخبث والخبائث ظهر على يد بعض فلاسفة الصوفية، فيقول الجيلي في الإنسان الكامل: "إن الإنسان الكامل هو القطب الذي ندور عليه أفلاك الوجود من أوله إلى آخره، وهو واحد منذ كان الوجود إلى أبد الآبدين... فإن الحق تعالى أوجب على نفسه أن لا ترى أسماؤه ولا صفاته إلا في الإنسان الكامل". (2)

وروج لهذه الأفكار إخوان الصفا فهم شيعة اسماعيلية باطنية. وأصبح التصوف الإسلامي هدفاً لهم بغرض التشويه فمن هذه الدوائر كلها صدرت ثروة ضخمة من الأحاديث الموضوعية صور النبي فيها بصورة ترجمان للأفكار الأفلاطونية المحدثه وأفكار الصابئة التي تحمل نزعات اليهود في صور تعاليم هرمس.

وهناك حديثاً يدعم هذا القول وهو: "أول ما خلق الله العقل. فقال له: أقبل، فأقبل. ثم قال له أدبر، فأدبر..." وهذا التصوير الذي لا يتفق مع تصوير القرآن لخلق الكون عدّ حديثاً. أو افتراءً على النبي...

ولاشك في أن هذه الأحاديث استهدفت التصوف ورجالاته، فلقد وضعت تحت تأثير الفكرة القائلة بأن العقل الكوني هو أول جوهر روحي صدر عن الذات الإلهية، وهي داخلة في عداد تلك المجموعة الضخمة من الأحاديث الموضوعية في هذا المعنى، والتي لا بد وأن يكون قد ورد الكثير منها في ذلك الكتاب الذي ذكره الغزالي ونعني به كتاب "العقل" لداود بن مْحَبِر البصري ت206هـ، وهو بلا شك يهودياً. (3)

فمن درس كتب التاريخ والعقائد والمسالك، وتعمق في منشأ ومولد الطوائف والنحل كان رأسها ومديرها، أو منشئها ومديرها هما اليهود. وأرادت أن تنفذ اليهودية بأفكارها المسمومة عن طريق التشيع المغالي. ولقد نال التصوف الجانب الأكبر من اهتمام التشيع المغالي لنشر أفكاره. ولولا أن هذه الأفكار صادفت هوى في نفوس المتربصين بالعقيدة الإسلامية، ما حرصت على هذه الأقوال المبتورة وتعلقت بها ونشرتها داخل البيئات الإسلامية. ووجد اليهود الفرصة سانحة فاهتبلوها بكل مهارة. وبدأ السيل الكبير من الأحاديث ذات الأصل اليهودي الدخول في عقيدة المسلمين، فظهرت هذه الأحاديث في علوم مثل علوم التصوف في موضوعات الولاية والإمامة والوصاية. ثم قذف بأحاديث التشبيه والتجسيم مستمدة من التوراة في معظمها. ونشرها اليهود الذين اعتنقوا الإسلام، أو تلامذتهم من أغبياء المحدثين. وكذلك نشر اليهود أحاديث عن الميعاد

(1) نفس المرجع السابق، ص181.

(2) الجيلي، الإنسان الكامل في معرفة الأولخر والأوائل، مصدر سابق، ص210، 213.

(3) جولد تسيهر، العناصر الأفلاطونية المحدثه، ضمن كتاب التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية، ترجمة د/ عبد الرحمن بدوي، مكتبة النهضة المصرية، ط2، القاهرة، 1946م، ص220.

وأشراط الساعة، والمهدي المنتظر، والمسيح الدجال. لدرجة أن غلاة الشيعة بالغت في التطرف في تقييم الجانب الباطني لتعليم الأئمة، فجعلت لديهم تدرج هرمي للشخصيات الثلاث العليا التي تظهر لنا الألوهية(1):

1- الناطق: إنه النبي الذي يبلغ الناس جهازًا الشرع، العقيدة المشتركة. وهو في الإسلام يتمثل بشخص سيدنا محمد المشار إليه بحرف "م".

2- الصامت: إنه الإمام الذي يمتلك التفسير الباطني للشريعة والكتاب دون أن يعلنه جهازًا. محتفظًا به لحلقة ضيقة من المريدين المؤهلين لتلقيه. ويتمثل في الإسلام بشخص "علّي" وخلفائه. يُشار إليه بحرف "ع" والإمام صامت تاريخيًا، إذ أنه لا يتكلم علانية.

3- الأساس: ويشار إليه بحرف "س" وهو الحرف الأول من اسم سلمان الصحابي الفارس، وصديق عليّ. إنه على غرار الروح القدس وجبريل، يلقي: الناطق أسرار الصامت - أو العكس - أو هو المبتدئ.

فيقول أخوان الصفا: "فإن في العالم نفوسًا خفية عن الحس، أفعالها ظاهرة وذاتها خفية، يسمون الروحانيين، وهم أجناس الملائكة وقبائل الجن وأحزاب الشياطين، ويعرف ذلك أصحاب العلوم والسحر والطلسمات".(2)

فإن الوصول للحقيقة عند أخوان الصفا يتمثل في النبي والحكيم والإمام. والحاجة إلى الحكيم لا تقل ضرورة عن الحاجة إلى النبي، وذلك لتحقيق خلاص البشرية. أما دور الإمام لا غنى عنه في أية حال: فهو الضامن النهائي والشاهد الدائم على صحة تعاليم الأنبياء، كما على تعاليم الفلاسفة. فالمشروع السياسي والاجتماعي والأخلاقي لا يمكن أن يُدرك بدون الحضور الفعلي والفاعل لشخص الإمام.

والتصدي لفكرة العقل الكلي والمخلص التي بدأت بتمثيلها على هرمس على يد اليهود، قام الإمام ابن تيمية إلى تأويل حديث العقل تأويلًا نحوياً من شأنه أن يسلب الحديث اتجاهه اليهودي. فليس الحديث: أول ما خلق الله العقل (أي أول شئ خلقه الله هو العقل) وإنما هو أول ما خلق الله العقل (أي لما خلق الله العقل)، فكأن خلق العقل إذاً قد سبقه خلق المخلوقات الأخرى، بعكس ما روجه اليهود. وهكذا كان ابن تيمية(3) بارعًا في رد الهجوم على السنة النبوية بهذا الفهم والتقدير البارع، وذلك بأن يضعوا "لما" بدلًا من "أول ما".

(1) د/ على سامي النشار، نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، ج1، ص70.

(2) إخوان الصفا، الرسائل، ج4، مصدر سابق، ص285.

(3) ابن تيمية، الرد على المنطقيين، تحقيق د/ عبد الصمد شرف الدين، مؤسسة الريان، ط1، بيروت، 2005م، ص87.

فنحن على الدرب متصدين وموضحين أن التصوف السني في صورته السنية: فهو إسلامي بحت. وثمت فرق بين مذهب موحد يحاول أن يستمد منهجه من موقف خاص تجاه القرآن وأن يعيش في قلبه وأن ينادي بالمعرفة المباشرة مستمدة من تلاوة الكلام الإلهي وترديده والذكر به، ومذهب إما ثنائي غنوصي يرد الواحد الإسلامي إلى اثنين ويجعل أصل الوجود تنازعاً بين قوتين، وإما غنوصي فيضي يصدر الموجود فيه صدوراً ذاتياً عن الله ويعود إليه.

لقد حاول اليهود بكل طاقة إنفاذ فكرة التجسيم إلى عقيدة التوحيد عند المسلمين عن طريق صابئة حران وجندوا مفكرين لذلك مثل ثابت بن قرة (1) الحراني 227هـ/892م. وقد اهتم ثابت بن قرة بمؤلفات هرمس الحكيم. وكان صابئة حران يعتقدون، أن الصانع المعبود، واحد وكثير في آن واحد، وأما أنه واحد ففي الذات والأصل والأزل. وأما أنه كثير، فلأنه يتكثر بالأشخاص. وقد أفصح إخوان الصفا عن هويتهم بقولهم: "أن مذهبنا واعتقادنا، هو مذهب صابئة حران" (2). وكان الصابئة الحرانية يكثر من ترديد لا إله إلا الله دون أن يقرنوها بشهادة وأن محمداً رسول الله. وكان الإله عندهم يظهر بظهورات بشرية، كاشفاً هويته في كل دور. لذا يعتبر الشهرستاني صابئة حران أصل الحلول فهو التشخيص، ويكون ذلك بحلول الإلهي في ذات الإنسان وربما يكون بحلول جزء من الإلهي على قدر استعداد مزاج الشخص. (3)

وكعادة اليهود النفاق والتقية، كان يلجأ الصابئة الحرانيون إلى مشاركة المسلمين في أعيادهم ومناسبتهم الدينية تقية، لدرجة أن طبقة الصديقين عند صابئة حران هم أصحاب العرفان المطلعين على الأسرار الإلهية، والزاهدين في ملذات الدنيا فهذا هو المدخل من أجل التخريب. فإن فلسفة الصابئة الحرانية تدعو إلى اعتزال الحياة، وكان الزهد في الحياة وزجر النفس عن الشهوات، طريق المرء لليقظة من غفلة الجهالة والتحرر من أسر الطبيعة، والخروج من هاوية عالم الكون والفساد إلى فسحة الأرواح والمكث هناك، قرب الباري سبحانه، فرحين مسرورين مخلصين... وبالتالي يكون الإله عندهم رمز للفاعلية الإنسانية المشخصة حيث يحل الكائن الديني في الإنسان ويغدو الإله صورة مجسمة عن الإنسان. (4)

انظر كيف بدأت القرامطة على يد قرمط، بدأت أيضاً بالزهد والتقشف، ثم اتخذوا موضعاً من الكوفة مقرّاً وسموه دار الهجرة، تذكر أن الكوفة هي بابل القديمة، ثم نزعوا إلى "سلمية" في شمال سوريا. ونادوا بالشيوعية والمساواة في الأموال والنساء ومن أشهر دعائهم "عبدان وذكرون

(1) أبو سليمان السجستاني، صوان الحكمة، تحقيق د/ عبد الرحمن بدوي، طهران، 1974م، ص299، ص285.

(2) أخوان الصفا، الرسائل، ج1، مصدر سابق، ص85.

(3) الشهرستاني، الملل والنحل، ج2، تحقيق محمد سيد كيلاني، دار صعب، ط1، بيروت، 1986، ص112.

(4) د/ محمد عبد الحميد الحمد، صابئة حران، مرجع سابق، ص70.

الدندانى" وقد بايعوا أبا عبد الله محمد المعروف بصاحب الناقة خليفة لهم في 900م. ثاروا على الطولونيين وهاجموا دمشق ثم رجعوا عنها خائبين إذ قتل خليفتهم 901م وأنشأوا لهم دولة في البحرين وانطلقوا منها فغزوا مكة ونقلوا معهم الحجر الأسود في 930م بعد أن انتهكوا حرمة الكعبة وأغاروا على العراق وحاصروا بغداد في أيام " الموفق " وكادوا يستولون عليها وغزوا عمان واليمن وخراسان وقطعوا طريق الحجاج ثلاثين عاماً من 914م إلى 943م.

أقول ذلك لأنهم يحاولون أن يعيدوا التاريخ، افيقوا قبل فوات الأوان! لقد أيقن اليهود أن قلعة المسلمين العقلية حصينة، وأن النزاع العقلي المباشر قد ينتهي إلى حجرهم وانقطاعهم. فاتجهوا اتجاهاً آخر في محاولة تقويض العقائد الإسلامية، اتجاهاً آخر سرياً يتفق مع الطبيعة اليهودية المغلقة التي تلجأ إلى التخفي حين تغلب على أمرها، وهذا الاتجاه هو الاندفاع إلى قلب العقائد الإسلامية، والقذف فيها بآراء تخريبية، أو مخالفة لعقيدة القرآن، ومحاولة إقامة نزاع عقلي ينتج عنه نزاع سياسي أو حزبي.

إن التشيع المغالي أوجده اليهود ، وأسسوا أسسه، وأصلوا أصوله، وأرسوا قواعده، ووضعوا عقائده ومعتقداته، بوساطة ابنهم البار بهم عبد الله بن سبأ، المتزىي بزي الإسلام، واللبس ثوبه ولباسه، تقية وخداعاً، الذي أرسل إلى عاصمة الخلافة الإسلامية أيام الخليفة الراشد الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه من قبل يهود صنعاء اليمن لتقويض دعائم الإسلام. "إن التشيع والرفض مأخوذ من اليهودية".(1)

لقد حمل اليهود الأضغان للدين الإسلامي، وبدءوا العداوة في المدينة. فلقد نزلت سورة الفلق؛ مع اتفاق المفسرين على أن سبب نزولها ما كان من سحر لبيد بن الأعصم، وهو مما خرج به البخاري ومسلم وغيرهما عن عائشة رضى الله عنها قالت: سحر رسول الله صلى الله عليه وسلم يهودي من يهود بني زريق يقال له لبيد بن الأعصم؛ الحديث. وفيه: أن النبي قال لما حلّ السحر: "إن الله شفاني". والشفاء إنما يكون برفع العلة وزوال المرض(2). ورأينا كيف اندفع اليهود من اليمن، وكانت في اليمن جالية يهودية كبيرة، انتشرت فيها السيمياء والتنجيم والسحر والطلاسم، وأن منها أتى عبد الله بن سبأ من ناحية، وكعب الأحبار من ناحية. ووصل اليهود إلى الكوفة، وسكنوا فيها، وعاونوا على إشعال "التشيع" الغالي وعلموا الكثير من رجاله السحر والنيرنجات.

(1) النوبختي، فرق الشيعة، منشورات الرضا، ط1، بيروت، 2012م، ص43/44.

(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج2، مصدر سابق، ص46.

كما اندسوا في قلب الحديث. ينشرون الأفكار المضلة. فاجتمع حوله وتحت لواء التشيع المتطرف كثير من أبناء اليهودية البغيضة، والفرس المهزومين، والبابليين المكسورين، والموالي المقهورين والكارهين للعرب... بعد فشلهم في محاربة الإسلام وجيوشه، فغيروا أسلوبهم في مزاحمة الإسلام جهراً، فتستروا بستار الإسلام، ودخلوا في صفوفه، واندمجوا في بيئته - وأعظم بيئة كان التصوف - ، وروجوا بين المسلمين أفكاراً يهودية ومجوسية ونصرانية، وعقائد مدخولة مدسوسة، نقمة على الإسلام والمسلمين، من حلول الإله أو الجزء الإلهي في الخلق، واجراء النبوة بعد خاتم النبيين، ونزول الوحي وإتيان الملائكة، وحصول العصمة، ووجود شخص في كل عصر وزمان به قيام الأرض وثباتها، وعقيدة الوصاية والولاية، والاختفاء والكتمان، والتأويل، وانقسام العلم إلى الظاهر والباطن، وتقسيم الناس إلى العامة والخاصة، وتعطيل الشريعة ومسحها، ومسح تعاليمها، ورفع التكليف وغير ذلك من الخرافات والترهات مما لا علاقة لها بالإسلام، قريبة ولا بعيدة، ولم يقصد من بثها ودسها إلا ضرب الإسلام ومحوه من الوجود، وتقريق كلمته، وتشتيت قوته، ودرء هيمنته، وخرق هيئته.

ولقد حاول اليهود جعل المعجزة والكرامة علم ممكن اكتسابه وتعلمه. فنحن إذن قادرون على فعل الصعود إلى السماء، وإنما يتعذر ذلك علينا لفقد العلم بكيفية تأتي هذه الأفعال. وبذلك تتحول المعجزة والكرامة إلى مجرد علم وإن التعتذر في الصعود إلى السماء والمشى على الماء هو مجرد فقد العلم (1)، بكيفية ترتيب الحركات واتصالها. وهذا ما كان يدعوا إليه المستشرقين اليهود من الادعاء بأن كرامات الأولياء هي مجرد المعرفة بالسيما.

وبذلك تحول عندهم جابر بن حيان إلى صوفي وإن كرامات ذو النون المصري كانت له لمجرد علمه بما كتب على جدران ومعابد المصريين القدماء!!

فإن قيل إن هذه الكرامات تشبه السحر فإن سماع الإنسان الهواتف في الهواء وسماع النداء في بطنه وطى الأرض له، وقلب الأعيان، ونحو ذلك غير معهود في الحس أنه صحيح إنما يظهر ذلك من أهل السيمياء والنارنجات، فالجواب ما أجاب به المشايخ العارفون والعلماء المحققون في الفرق بين الكرامة والسحر، أن السحر يظهر على أيدي الفساق والزنادقة والكفار الذين هم على غير شريعة. (2) إن الولي أول طريقه العبادة، ولا يأتي ما يتعارض مع الشرع. وأعظم الكرامة كما قال الجنيد وغيره من أهل الطريق: أن يوفق الله العبد للسير على حدود

(1) الباقلاني، كتاب البيان، تصحيح يوسف مكارثي، المكتبة الشرقية، بيروت، 1985م، ص7/.

(2) الشعراني، الطبقات الكبرى، ج1، تحقيق د/ أحمد عبد الرحيم السايح، مكتبة الثقافة الدينية، ط1، القاهرة، 2005م،

الكتاب والسنة، وهذه أعلا غاية تطلب في هذه الدار، ومن تعجل شيئاً من ثمرة أعماله حرمها في الآخرة، والله غني حميد.(1)

لهذا الإجماع منعقد من المسلمين على أن للأولياء كرامات من جنس المعجزات وليس من جنس السحر والسيما، ولكن كبار الصوفية يحذرون من الركون إليها والإغترار بها، مخافة أن تكون نوعاً من الابتلاء يبتلي الله به العبد ويمتحن به صدقه. ويرى بعضهم أنه يجب ألا يتحدث الولي عنها أو يتحدث بها.(2) بيد أننا لو ولينا وجهنا شطر الصوفية المتقيدين بالكتاب والسنة لم نجد شيئاً من هذا كله في احتفائهم بمثل هذه الكرامات الحسية الخارقة، والتي نسبها البعض إليهم بحق أو بغير حق. فليست كل الكرامات خرقاً للعادة ولا مشياً في الهواء ولا غير ذلك، فكلها وغيرها ليست مما يرفع الصوفي في درجته عند ربه أو عند الناس، وإنما الذي يرفعه عند الحق تعالى في رأينا هو استقامته، وعند الخلق حسن معاملته لهم وإرشادهم إلى علم وصل إليه. والدليل على هذا أنه قيل لبعض الصوفية أن فلاناً يمشي على الهواء فقال عندي أن من مكنه الله في مخالفة هواه، فهو أعظم من المشي على الهواء.

فقد يحصل للأولياء تصرف يكتسبونه بالكلية الإيمانية، وهو من نتائج التجريد؛ ولا يقصدون إلى تحصيله، وإنما يأتهم عفواً، والتمكنون منهم إذا عرض لهم أعرضوا عنه، واستعاذوا بالله منه، وعدوه محنة، كما يحكى عن أبي يزيد البسطامي أنه وافى شاطئ دجلة عشاء متخفياً فالتقى له طرفا الوادي، فاستعاذ بالله وقال لا أبيع حظي من الله بدانق - يقصد أجرة ركوب السفينة - وركب السفينة عابراً مع الملاحين. (3) وعلى أية حال فكبار شيوخ الصوفية لا يعولون كثيراً على الكرامة وإنما المصيبة تجئ من أدعياء التصوف أو بعض الأتباع منهم والذين لا يتقيدون بمسلك المشايخ، لأن غاية مهمهم هو إضفاء هالات التقديس على الأولياء ومحاولة المبالغة في إثبات بعض الكرامات لهم، فشغلوا أنفسهم بهذا بينما مثل هذا الأمر لم يكن شغل شيوخنا الأخيار. هكذا كان الجانب الأهم في فكر الصائبة عند اليهود.

2- الغنوصية:

أما الجانب الآخر في تكوين الفكر اليهودي: الغنوص أو الغنوسيس وهي كلمة يونانية الأصل معناها المعرفة، غير أنها أخذت بعد ذلك معنى اصطلاحياً هو التوصل بنوع من الكشف إلى المعارف العليا، أو هو تذوق تلك المعارف تذوقاً مباشراً بأن تلقي في النفس إلقاء فلا تستند على الاستدلال أو البرهنة العقلية.

(1) الشعراني، نتيجة العلوم، تحقيق د/ عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، ط2، بيروت، 2006م، ص77.

(2) د/ أبو العلا عفيفي، التصوف الثورة الروحية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط1، القاهرة، 2013م، ص302.

(3) ابن خلدون، المقدمة، ج3، مصدر سابق، ص1044.

وقد اعتبر الغنوصيون عقائدهم أقدم عقيدة في الوجود، وأن الغنوصية أقدم "وحي" أوحى الله به فانتقل من طبقة غنوصية إلى طبقة أخرى ، ولا يكف انتقاله ولا ينتهي. وهو يختلف عن غيره من العقائد الدينية بأن دائرته لا تتوقف أبداً. وقد احتفظ به مجموعة من الكهان والسحرة وتناقلوه، معلنين أن بيدهم "مفاتيح الأسرار الإلهية" و"أسرار القدس الأعلى"، و"بالغنوص" الخلاص الأبدي، ذلك أنه الوحي المتجدد والفيض الذي ينبعث دائماً من الملاء الأعلى.

وأول من قال بذلك طائفة من اليهود عندما وجدوا النصارى تقول بأن المسيح ابن الله، فقالت اليهود معاندة لهم عزيز ابن الله،⁽¹⁾ وكان ارميا النبي وعزير ودانيال الأصغر وهو من ولد دانيال الأكبر كانوا من ضمن من سباهم بخت نرس "بخت نصر" وعادوا مرة أخرى إلى القدس، فإن فكرة الحلول أو بدايات غنوص الحلول كانت يهودية، وكذلك انظر لتفسير قوله تعالى: "وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخْ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ" [الأعراف/175] وقال بعض المفسرين أنه بلعم بن باعوراء وكان مستجاب الدعوة وكان يعلم اسم الله الأعظم وكان إذا سجد رفعت له الحُجب حتى يرى ما تحت الثرى والكرسي. فلما اتبع الشيطان دلح لسان بلعم بن باعوراء وذهبت الآيات التي كان الله أعطاها.

وكذلك سيدنا داود كان من طول سجوده وشدة جزعه وكثرة بكائه نبت العشب بين دموعه ولصقت جلدة حزمه بمسجده وكان يجمع في كل أسبوع الناس فينوح على خطيئته. ومن ذلك نجد أن صور التصوف الحقيقية كانت موجودة في أنبياء بني يهود ومع ذلك لجأوا إلى العرفان والغنوص وكأن التأويل المقصود به تحريف الكلم عن مواضعه حرفة وصناعة لهم. وأصبح الاتحاد المطلق بين العارف والمعروف عندهم، سواء في العرفان أو في المادة، فهو لكل من يتذوق المعرفة الإلهية، فيلقى فيه الغنوص ويصير جوهراً ربانياً. ولذلك نرى سمعان⁽²⁾ - أحد أحبار السامريين وأقدم يهودي بعد وفاة المسيح بقليل - يعلن: أن الغنوص ليس للمسيح فقط، وإنما يظهر في كل مكان وأن الإله الأعلى أظهر نفسه للسامريين كأب في شخصه هو، وأظهر نفسه لبقية اليهود في شخص المسيح وسيظهر نفسه في كثير من الأماكن كروح القدس. وأن هذا الإظهار سيكون مستمراً ما دامت الدنيا. بل إنه أعلن قدرته هو نفسه على منح "روح القدس" ولمن يظهر من مريديه، وقام بمعجزات من نوع معجزات المسيح، فأمن به الكثيرون وبقيت دعوته زمناً طويلاً، وكادت أن تقضي على المسيحية، لولا قيام بعض أباطرة الرومان الذين اعتنقوا المسيحية بمقاومة السمعانية.

(1) المقدسي، البدء والتاريخ، ج3، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، د. ت، ص 116/115/89.

(2) د/ النشار، نشأة الفكر، ج1، مصدر سابق، ص 188.

إن هذا الاتحاد الذي تزعمه تلك الدوائر تحت اسم التوحيد الحقيقي إنما هو تجديد وانحراف في نظر المعتدلين أو المتسامحين، أو إلحاد وكفر في نظر المتمسكين بدقة الأصول. لذلك إنني مندهش من نيكلسون (1) وماسينيون (2) اللذان يعلنان مرة ومرة أن الصوفية والمتكلمون كادوا أن يجعلون من الإسلام مذهباً في وحدة الوجود! وكأنهم يعز عليهما أن يبقى الإسلام، وعلمائه بعيداً عن هراء السابقين ويذهبوا إلى الزج ببعض الصوفية في مهالك الغنوصية مثل ذو النون المصري والحلاج. فلقد أخطأ الأستاذان نيكلسون وماسينيون حين قالوا إن الحلاج أكد في فلسفته الحلولية الشهودية امتزاج الطبيعة الإلهية بالطبيعة البشرية.

نعم قد يبدو في ظواهر أقواله - الحلاج - هذا الامتزاج، ولكن بعضها ينفي ذلك الامتزاج بل يؤكد التفرقة "بل أنا حق ففرق بيننا". وإذا كان نيكلسون قد أكد إيمان الحلاج بامتزاج الطبيعتين، فقد نفى ماسينيون عن الحلاج إيمانه بظاهر قول الحلاج في الحلول بمعنى حلول الله في الجسد كما تمزج الخمرة بالماء الزلال، فقد قيل للحلاج "أهو هو قال بل هو وراء كل هو".

واستغل اليهود والمستشرقين فكرة كشف الحجاب عند الأولياء وأذاعوا فكرة الحلول والاتحاد واتهموا بها أكابر الصوفية، محاولين تشويه فكرة التوحيد والوحدانية وهي قلب الإسلام، فإن كشف حجاب الحس بسبب الذكر والمجاهدة في العبادة وعن كل مجاهدة إما أن ترسخ عبادة وإما أن تكون صفة حاصلة للنفس من حزن أو فرح أو غير ذلك حتى يصل إلى التوحيد ... فإن الكشف يحدث إذا رجع العبد عن الحسن الظاهر إلى الباطن، فتضعف أحوال الحسن وتقوى الروح ولا يزال في نمو وتزايد إلى أن يصير شهوياً بعد أن كان علماً، ويكشف حجاب الحس ويتم وجود النفس الذي لها من ذاتها وهو عين الإدراك، وهذا ما سماه الغزالي بكيمياء السعادة، وحينئذ تفتح لها المواهب الربانية والعلوم الدنية والفتح الإلهي، وتقرب ذاته في تحقق حقيقتها من الأفق الأعلى، أفق الملائكة. (3)

وهذا هو الولي الرباني الذي يحفظ الإسلام في قلبه الذي يجمع بين شيئين من أصل واحد، وهو إخلاص القلب بتوحيد الله واستكانة العبودية مع ملازمة موافقة الله. فإن السليم الذي سلم من سوء القضاء. وقيل: الذي سلم من الكبائر، وقيل: الذي سلم من الشرك، وقيل: الذي سلم من بعض أصحاب النبي. وقال سهل: الذي سلم من البدع. وقال الشبلي: سليماً من جميع ما

(1) نيكلسون، في التصوف الإسلامي وتاريخه، ترجمة د/ ابو العلا عفيفي، مرجع سابق، ص144/145.

(2) ماسينيون، ومصطفى عبد الرازق، التصوف، ترجمة إبراهيم خورشيد وآخرون، دار الكتاب اللبناني، ط1، بيروت، 1984م، ص40.

(3) ابن خلدون، المقدمة، ج3، مصدر سابق، ص99.

في الكون. قال أبو بكر الوراق: القلب السليم الراضي لمجاري المقدور عليه في المحبوب والمكروه. أي أن القلب السليم هو الذي يفوض كل أموره إلى الله، ويكون راضيًا بقضاء الله. (1) فهذا الكشف إذا كان له كرامة، فإنها حصلت ببركة اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم، فهي في الحقيقة تدخل في معجزات الرسول، مثل: انشقاق القمر، وتسبيح الحصى في كفه، وإتيان الشجرة إليه، وحنين الجذع. فأولياء الله المتقون هم المققدون بمحمد - صلى الله عليه وسلم - فيفعلون ما أمر به وينتهون عما نهى وزجر، ويققدون به فيما بين لهم أن يتبعوه فيه، فيؤيدهم بملائكته وروح منه، ويقذف الله في قلوبهم من أنواره، ولهم الكرامات التي يكرم الله بها أوليائه المتقين، وخيار أولياء الله كراماتهم الحجة في الدين أو الحاجة بالمسلمين، كما كانت معجزات نبيهم صلى الله عليه وسلم كذلك. (2) وهذا الكشف وهذه الكرامات كثيرًا ما يعرض لأهل المجاهدة فيدركون من حقائق الوجود ما لا يدرك سواهم، وكذلك يدركون كثيرًا من الوقائع قبل وقوعها ويتصرفون بهمهم وقوى نفوسهم في الموجودات السفلية، وتصير طوع إرادتهم فالعظماء منهم لا يعتبرون هذا الكشف ولا هذا التصرف ولا يخبرون عن حقيقة شيء لم يؤمروا بالتكلم فيه، بل يعدون ما وقع لهم من ذلك محنة ويتعذرون منه إذا وقع منهم. (3) فإن الولي إذا أطلعه الله على غيب من غيوبه فإنما ذلك لانطوائه في جاه النبوة، وقيامه بصدق المتابعة، فما رأى ذلك بنفسه وإنما رآه بنور متبوعه. فإن إطلاع العباد على غيب الله إلا من أطلعه الله. (4)

فالولي الحقيقي هو الزاهد العابد المخلص لدين الله ونبيه وليس الزاهد المدعي المتستر وراء الصنعة كعلم أو الفكر الغنوصي الذي مؤداه الإلحاد والزندقة، فليس من الغريب أن نرى الكوفة مسرح لظهور كلمة التصوف. والكوفة هي بابل القديمة معقل اليهود، ولقد أطلق لفظ الصوفي على ثلاثة أشخاص وسبحان الملك الثلاثة يمثلون صور الولي الحقيقي والمزيف، فهناك جابر بن حيان مجددًا السيمياء أي يصل إلى المنهج التجريبي الصحيح واضعًا لأصول علم الكيمياء وعبدك الصوفي مجددًا لفكر الزنادقة والغنوص وأبو هاشم الصوفي يمثلون صورة الولي الحقيقي في التصوف الإسلامي السني. والثلاثة يعتمدون على الطريق العملي وهو الزهد. وهذا ما دعي ابن تيمية (1) ليفرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، فالفرق بين كرامات الأولياء وما يشبهها من الأحوال الشيطانية فروق متعددة: منها: أن كرامات الأولياء

(1) السلمي، حقائق التفسير، ج2، تحقيق د/ سيد عمران، دار الكتب العالمية، ط1، بيروت، 2001م، ص80/79.

(2) ابن تيمية، الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، مصدر سابق، ص151.

(3) ابن خلدون، المقدمة، ج3، مصدر سابق، ص992.

(4) ابن عطاء الله السكندري، لطائف المنن، تحقيق د/ عبد الحليم محمود، دار المعارف، ط3، القاهرة، 2006م، ص69.

سببها الإيمان والتقوى. والأحوال الشيطانية سببها ما نهى الله عنه ورسوله. وقد قال تعالى "قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ..." [الأعراف/33]. فالقول على الله بغير علم والشرك والظلم والفواحش قد حرمها الله تعالى ورسوله فلا تكون سببه لكرامة الله تعالى بالكرامات عليها، فإذا كانت لا تحصل بالصلاة والذكر وقراءة القرآن، بل تحصل بصنعة أو بحيل شيطان أو بالأمور التي فيها شرك كأفكار الغنوصية التي تدعو إلى الاستغاثة بالمخلوقات. أو كانت مما يستعان بها على ظلم الخلق وفعل الفواحش، فهي من الأحوال الشيطانية لا من الكرامات الرحمانية.

لهذا فإن الكرامة تارة تظهر للولي في نفسه. وتارة تظهر فيه لغيره. فإن ظهرت للولي في نفسه فالمراد تعريفه بقدرة الله وفرديته وأحدثته؛ وأن قدرته لا تتوقف على الأسباب؛ وأن العوائد هو حاكم عليها ليس هي حاكمة عليه. وإنما جعل العوائد والوسائط والأسباب حجب قدرته، وسحب شمس أحدثته؛ فواقف عندها مخدول، ونافذ منها إليه هو بالعناية موصول. وبناءً على هذه المعاني الراقية التي تغيب عن عقول وأفهام المدلسين، فإن شئت قلت هما ولايتان (2): ولاية دليل وبرهان، وولاية شهود وعيان، ولاية دليل وبرهان لأهل الاعتبار، وولاية الشهود والعيان لأهل الاستبصار. فلأهل الولاية الأولى قوله سبحانه: "سُرِّيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ" [فصلت/53]. ولأهل الولاية الثانية: "قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ" [الأنعام/91].

أنهما يا سادة ولايتان: ولي يتولى الله، وولي يتولاه الله، وقد قال الله عز وجل في الولاية الأولى: "وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ" [المائدة/56] وقال في الولاية الثانية: "وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ" [الأعراف/196] ... ففرق بين الولايتين: فعبد يتولى الله، وعبد يتولاه الله فهما ولايتان: صغرى وكبرى، فولايته لله خرجت من المجاهدة، وولايتك لرسوله خرجت من الاقتداء بالأئمة وليس بالدجالين.

ولو ذهبنا إلى أبعد من ذلك وقلنا إن ظهور فكرة الاسم الأعظم عند بلعم بن باعوراء وكان مستجاب الدعوى ثم غوى واتبع الشيطان، إذن عندما دخلت الفكرة في عقائد الصوفية وظهرت عند ذو النون المصري وإبراهيم بن أدهم ت 162هـ، نتأكد أن لكل فكرة أصل وأصل هذه الفكرة ذكرها القرآن، فهي ليست إفك أو ضلال ولكن إخراجها عن أصلها هو الإفك بعينه وبذلك كانت الوسيلة لدى اليهود ثم غلاة الشيعة في معرفة الاسم الأعظم هو معرفة السحر

(1) ابن تيمية، الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، مصدر سابق، ص66.

(2) ابن عطاء، لطائف المنن، مصدر سابق، ص46.

والنيرنجات، فأصبحوا على دراية ومعرفة عالية بالطلاسم والنيرنجات والسحر والتنجيم وقدم الغلاة من الشيعة فكرة التأويل ورأوا أن للآيات باطنًا لا يعلمه سوى الإمام وخاصته. ودخلت الكبالا اليهودية في عقائدهم.

ويوضح ذلك الباقلاني(1)، فيرى أن الساحر إذا احتج بالسحر وادعى به النبوة، أبطله الله تعالى عليه بوجهين: أحدهما أنه إذا علم ذلك في حال الساحر وأنه سيدعي به النبوة، أنساه عمل السحر جُملَةً. وهذا ما حدث مع بلعم فعطل لسانه!. فإذا منع الساحر الأسباب بطل سحره وبان الفرق بين النبي، وبينه. وبذلك يتحقق المنع، فلا يستطيع أن يأتي بالخوارق، فيجري على يديه الكذب ويكشف قناعه ويفضح بين الناس، لذلك عمد الصوفية إلى ستر الكرامة ، فكشفها والبوح بها يعتبر تحدي للخالق سبحانه وتعالى، فتنحول الكرامة من تكريم ونعمة إلى تشهير ونقمة.

ولكي يتخلص أصحاب الغنوص من يهود وغلاة الشيعة من السحر والفرار منه لجأوا إلى السيمياء. إذن يتسترون بتلك الرياضة تخرجًا من السحر المعهود الذي هو كفر أو يدعو إليه. وهم في الحقيقة واقعون في معناه، فلم يبعدوا كل البعد عن اعتقاد التأثير لغير الله، ثم إنهم يقصدون التصرف في علم الكائنات، وهو محظور عند الشارع. وما وقع منه للأنبياء في المعجزات فبأمر الله وإقداره. وما وقع للأولياء فبإذن من الله يحصل لهم لخلق العلم الضروري إلهامًا وغيره ولا يعتمدون من دون إذن. فلا تتقن بما يمؤه به هؤلاء في هذه السيمياء؛ فإنما هي من فنون السحر وضروبه. (2)

وأهل السيمياء عن طريق معرفتهم بأسماء الله ومناسبات هذه الأسماء وطبائع الحروف والكلمات تنكشف لهم حقائق الملكوت وتصرف أصحاب الأسماء "السيمياء" يعتقدون أنه حصل لهم بالمجاهدة والكشف من النور الإلهي والمدد الرباني فيسخر لهم الطبيعة.

فإن هذه الرياضة السحرية مشحونة بالكفريات كالتوجهات للكواكب والدعوات لها، التي يسمونها قيامات لاستجلاب روحانياتها، وكاعتقاد التأثير من غير الله في ربط الفعل بالطوابع النجومية وبمناظرة الكواكب في البروج لتحصيل الأثر المطلوب ... أما أهل الطلسمات فيكون تصرفهم عبارة عن استئزال روحانية الأفلاك وربطها بالصور أو بالنسب العددية حتى يحصل من ذلك نوع مزاج يفعل الإحالة. فإن حقيقة الطلسم وتأثيره على ما حققه أهله أنه قوى روحانية من جوهر القهر يُفعل فيما له ركب فعل غلبة وقهر بأسرار فلكية ونسب عددية وبخورات جانبات

(1) الباقلاني، كتاب البيان، مصدر سابق ص94/95.

(2) ابن خلدون، المقدمة، ج3، مصدر سابق، ص1045.

لروحانية ذلك الطلسم مشدودة فيه بالهمة فائدتها ربط الطبائع العلوية بالطبائع السفلية وهو عندهم كالخميرة المركبة من أرضية وهوائية ومائية ونارية حاصلة في جملتها تخيل وتصرف ما حصلت فيه إلى ذاتها وتقلبه إلى صورتها. وكذلك الأكسير للأجسام المعدنية خميرة تقلب المعدن الذي تسري فيه إلى نفسها بالإحالة. (1)

ولا فرق بين أهل السيمياء وأصحاب الطلسمات. (2) بل صاحب الطلسمات أوثق منه لأنه يرجع إلى أصول طبيعية علمية وقوانين مترتبة. وأما صاحب أسرار الأسماء إذا فاته الكشف الذي يطلع به على حقائق الكلمات وآثار المناسبات وليس له في العلوم الاصطلاحية قانون برهاني يعول عليه فيكون حاله أضعف رتبة... وقد يمزج صاحب الطلسمات عمله وقوى كوكبه بقوى الدعوات المؤلفة من الكلمات المخصوصة لمناسبة بين الكلمات والكواكب. إلا أن مناسبة الكلمات عندهم ليس كما هي عند أصحاب الأسماء من أهل المشاهدة وإنما يرجع إلى ما اقتضته أصول طريقتهم السحرية من اقتسام الكواكب لجميع ما في عالم المكونات من جواهر وأعراض وذوات ومعان والحروف والأسماء من جملة ما فيه فلكل واحد من الكواكب قسم منها يخصه ويبنون على ذلك مباني غريبة مُنكرة من تقسيم سور القرآن وآيه على هذا النحو كما فعله مسلمة المجريطي في غايته.

هذه هي المعرفة الغنوصية التي تتحقق بالتأمل والإشراق. ويتم ذلك عن طريق سلوك قاسي، وتركز داخلي وانعكاس باطني يحدث من مزاولة طقوس طويلة ومعقدة تسمى بالسيمياء والطلسمات. وهذا بعينه مفهوم الكبالا اليهودية في جوهرها الغنوصي في التشوف في معرفة العالم. وأصبحت دعوة الزهد والتقشف دعوة للالتباس والتمويه. وأصبحت رياضات وطقوس العبادات والذكر والابتهاال ممارسات للتأمل ودعوات للغنوص المعرفي ويتحول فضل الحكمة والعبادة إلى كهانة بما تشمله من ضروب السحر المختلفة.

فوجدنا محاولات يائسة لإحلال السحر مكان المعجزة والكرامة. ووجدنا هذه المحاولات عبر السنين مسطورة في بعض المؤلفات منها فيدون لأفلاطون، ففي فيدون نزعة شرقية محبة إلى المسلمين، فهي بضاعتهم ردت إليهم. لدرجة أن الشهرستاني (3) وهو مفكر أشعري يقول: " بأن أفلاطون معروف بالتوحيد والحكمة". بل يصل بالسهروردي ت 587هـ أن يصف أفلاطون

(1) ابن خلدون، شفاء السائل، مصدر سابق، ص56.

(2) نفس المصدر السابق، ص57.

(3) الشهرستاني، الملل والنحل، ج2، مصدر سابق، ص30.

بأنه صاحب الحكمة الذوقية (1). فإن الحكماء الذين هم من جملة الأصفياء والأنبياء والأولياء أفلاطون وأغاثاديمون وهرمس وانبادقليس وفيثاغورث وسقراط.

وتعرف محاورة فيدون عند المسلمين تحت اسم فاذن. وكان أثر فيدون عميقاً في بعض فلاسفة الصوفية وعلى رأسهم ابن سبعين ومن بعده أبو الحسن الششتري لدرجة أن الذهبي يقول " لقد اشتهر عن ابن سبعين أنه قال: لقد تحجر ابن آمنة واسعاً بقوله لا نبي بعدي. وكان يقول في الله عز وجل أنه حقيقة الموجودات، فهو من القائلين بوحدة الوجود. (2) كما أثر في القرامطة، ولكن لم يشغل مفكرو الإسلام الحقيقيون، أهل السنة والجماعة، والمعتزلة في جملتهم، ب فيدون، فلم ينفذ إلى أعماق فلسفتهم، ولم يشغلوا بخلود النفس.

وفي هذه المحاورة نجد التأثير الشديد بأفكار الفيثاغورية. ولم تجد الفيثاغورية سبيلاً في الفكر الإسلامي إلا لدى الكثيرين من غلاة الشيعة والغنوصيين، فكان لفكرة الأعداد مكان كبير لدى طوائفهم المختلفة، فلقد أخذ الشيعة الاثنى عشرية فكرة العدد اثني عشر وقداسته من الفيثاغورية. ثم أثرت الفيثاغورية في الاسماعيلية ... وسيطرت على كتابات إخوان الصفا وهم اسماعيلية قطعاً. وقد آمن إخوان الصفا بأن لحركات أشخاص الأفلاك أصواتاً ونغمات، وتلك النغمات أطيب من قراءة داود للزبور في المحراب، وأن تلك النغمات والألحان تذكر النفوس البسيطة التي هناك - عالم الملائكة- بسرور عالم الأرواح التي فوق الفلك والتي جوهرها أشرف من جواهر عالم الأفلاك، وهو عالم النفوس. (3)

وهذا مزيج فيثاغوري أفلاطوني هرمسي عبرت عنه القبالا أو الكبالا وهي الغنوصية اليهودية في أجلى مظاهر الغنوصية. وقدمت لليهود معرفة بالوجود، وبتكوين الوجود الداخلي وروحانيته تفسيراتها المعروفة، مدعية أنها تصل إلى هذا بطريق تتجاوز العقل، وأنها تستلهم وحياً خاصاً ... إن الكبالا اليهودية كانت تعلن أنها تريد أن تصل إلى الحياة الباطنية للملكوت الإلهي، وأن يعيش فيه خلص اليهود، ثم ما لبثت أن اندفعت، وقد أحاطت بها علوم السحر والطلسمات والسيمياء. واتخذت الكبالا طريقتين: الكبالا العملية، والكبالا النظرية. أما الأولى، فهي تعليم للسحر وللشعوذة، والثانية مذهبها الغنوصي النظري. (4)

إذن إخوان الصفا عبروا عن الغنوصية اليهودية وروجوا لها في قلب العالم الإسلامي، إلا أن رسائلهم لم تصادف أي قبول من مفكري الإسلام، بل أعلن المتكلمون شيعة وسنة

(1) السهروردي، حكمة الإشراق، تصحيح هنري كوربان، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ط1، القاهرة، د.ت، ص16.

(2) الزركلي، الأعلام، ج2، المطبعة العربية، القاهرة، 1927م، ص477.

(3) إخوان الصفا، الرسائل، ج1، مصدر سابق، ص168.

(4) د/ النشار، نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، ط، مصدر سابق، ص 188.

ومعتزلة، أنها اسماعيلية، وضعت لتقويض العقائد الإسلامية بما حوته من مذاهب يونانية وفارسية، ونسبت دائماً إلى الباطنية والقرامطة.

إن إجمالاً تنقسم الهرمسية إلى مدرستين: الهرمسية الشعبية، والقطب الذي تدور عليه علوم التنجيم والغيب. فما نقصده بهذه الهرمسية إذاً هو مجموع هذه العلوم الباطنية: علم الحروف والتنجيم والسيماء "سحر الحروف" (1). والهرمسية العلمية، وهي لاهوتية وفلسفية. (2) وبذلك لا بد لنا أن نفرق بين صنفين من الكتابات العائدة على الهرمسية، فهناك الكتابات الشعبية التي تضم علوم الفلك والسحر والعلوم الخفية والسيماء. والكتابات العلمية وهي كتابات لاهوتية فلسفية. ولقد تكونت السيماء، في غالب الظن، على مدى القرون بفضل التلاقي والتداخل بين ممارسة الحرفيين وبين تأملات فلسفية ودينية وهي تأملات هرمسية غالباً.

ويزعم السيمائي أنه يخرج بهذه الصناعات كلها جسم طبيعي يسمونه الإكسير، وأنه يلقي منه على الجسم المعدني المستعد لقبول صورة الذهب أو الفضة ... وربما أطلقوا على ذلك الإكسير اسم الروح. (3) إذن هدف السيمائي تحويل المعادن البخسة "الرصاص"، القصدير إلى معادن ثمينة بواسطة حافز يسمى حجر الفلاسفة وهذه المادة تكون عناصرها متوازية تماماً فيما بينها. ومن الممكن الحصول على قدرة التحول هذه، بفضل معرفة ثابتة لتأثير الأشعة الضوئية، أو تأثير الروح اللامرئي الذي يحرك الكون.

وأنت ترى كيف صرف ألفاظهم كلها في الصناعة إلى الرمز والألغاز التي لا تكاد تبين ولا تعرف. وذلك دليل على أنها ليست بصناعة طبيعية. أي أنها من جنس السحر، وأما السحر فلأن الساحر يقلب الأعيان المادية بقوته السحرية. ولا بد له من ذلك عندهم من مادة يقع فعله السحري فيها كما وقع لسحرة فرعون في الحبال والعصي.

ويعتبر كتاب الفلاحة النبطية (4) من أوضاع أهل بابل أول الكتب في هذا المجال، وتحدث هذا الكتاب عن إحالة الأجسام النوعية من صورة إلى أخرى إنما يكون بالقوة النفسية لا بالصناعة العملية، فهو من قبيل السحر. ثم جاء مسلمة بن أحمد المجريطي إمام أهل الأندلس في التعاليم والسحريات، فظهر كتاب له سماه "رتبة الحكيم" السيماء وجعه قريباً لكتابه الآخر في السحر والطلسمات الذي سماه "غاية الحكيم"؛ وزعم أن هاتين الصناعتين هما نتيجتان للحكمة وثمرتان للعلوم، ومن لم يقف عليهما فهو فاقد ثمرة العلم والحكمة أجمع... وانظر كيف سمى

(1) لويس مينار، هرمس المثلث العظيمة، مرجع سابق، ص9.

(2) بيبير لوري، من تاريخ الهرمسية، مرجع سابق، ص69/16.

(3) ابن خلدون، المقدمة، ج3، مصدر سابق، ص1070.

(4) نفس المصدر السابق، ص1031.

مسلمة كتابه في السيمياء "رتبة الحكيم" وسمى كتابه في السحر والطلسمات "غاية الحكيم" إشارة إلى عموم موضوع الغاية وخصوص موضوع هذه، لأن الغاية أعلى من الرتبة، فكأن مسائل الرتبة بعض من مسائل الغاية وتشاركها في الموضوعات.

فقد ثبت وجود مدرستين في سيمياء ما قبل الإسلام. الأولى بابلية متوجهة نحو التطبيق والاختبار، والثانية مصرية متخصصة بالتأمل والزهد بشكل أساسي. وبالتالي تمثل المرحلة المصرية التجهيزات الأولى لنشأة السيمياء. ولم يصل من مؤلفات هذه المرحلة سوى اسم الرائد الأول المعروف بـ"بولس المندائي" (1) وبعض المقاطع من مؤلف منحول منسوب إلى ديموقريطس وفقرات مبعثرة تلحق بهذا التقليد، أو تُعزي إلى معلمين أسطوريين أمثال إيزيس، وهرمس... وتمثل شخصية زوسيموس الأخميمي لوحدها مرحلة ثانية في تطور السيمياء، إذ أنه كفيلسوف إغريقي، وغنوصي رؤيوي، أعطى لهذا العلم بُعداً تصورياً ورمزياً جعل منه منذ ذلك الوقت، مقارنة مستقلة في البحث الصوفي.

إن المشروع السيميائي يتعلق، قبل كل شيء، ببحث عن المعرفة الروحانية الغنوصية. وأصبحت السيمياء بالنسبة للأفلاطونيون المحدثون والغنوصيون جزءاً من عقيدتهم الفلسفية والدينية. إن السيميائيين يضعون صنعتهم في مركز منطوق الخلاص.

ومع أول ظهور مدرسة من السيميائيين، كانت ذات نزعات شيعية. وامتد الاهتمام بالسيمياء في العالم الإسلامي حتى القرن الرابع عشر الميلادي، فظهر ابن أميل وهو رائد لسيمياء هرمسية ذات نزعة روحانية. (2) وكذلك "باليناس" صاحب كتاب "الأصنام السبعة" ويتمتع بمقام مميز في علم السيمياء وللكتاب نص يوناني. وله أيضاً كتاب "سر الخليفة" وهو مهتم بالتأويل والتفسير الباطني واستشهد في هذا الكتاب بـ"اللوح الزمردى" ويحتوي على رسالة هرمس إلى البشر. وظهر كتاب الأصنام السبعة في مؤلف ضخم للعالم الروحاني الجدلدي "عبد الله"، في القرن الرابع عشر الميلادي. وعنوانه "كتاب البرهان بالسر لعلم الميزان". وهو كتاب يعرض لخطاب ذي نزعة سيميائية، في إطار قصصي يميل إلى الخرافة. والجلدي يغطي نتاجه مجموع العلوم الباطنية. كما تمثل واجهة العلوم الباطنية العملية من سيمياء، وطلسمات، وسحر وتنجيم. (3)

هل قبل المسلمين هذا التراث من طوائفهم المختلفة، وأعني بالتحديد التصوف السني الأصل الذي يعبر عن الدين الإسلامي لم ولن يكون منقولاً من تيارات وأحداث لا تعبر عنهم؟!

(1) فاضل أحمد الطائي، أعلام العرب في الكيمياء، مرجع سابق، ص38.

(2) بيبير لوري، من تاريخ الهرمسية، مرجع سابق، ص85.

(3) فاضل الطائي، أعلام العرب في الكيمياء، مرجع سابق، ص85.

بالتأكيد وقف علماء المسلمين ضد هذه التيارات اليهودية الغنوصية حتى ولو تدثروا بعبادة الإسلام! فإذا قالوا بأن التأثير ظهر على الإمام الغزالي في ربطه بين التصوف وعمل الكيمياء، فنقول أن هذا من قبيل التشبيه والتمثيل وليس التحقيق وتداخل في المهام، فكان ذكر الغزالي تشبيهاً وهذا ما أكد عليه الهجويري ت بعد 465 هـ في كشف المحجوب (1): "فإن مقامات الصوفية ومذاهبهم وأقوالهم ورموزهم وإشاراتهم، إن هذه المعاني كبريت أحمر، وهو شيء عزيز، وحين يوجد يكون كيمياء. ووزن دانق منه يحيل كثيراً من النحاس والقصدير ذهباً. وهذا تشبيه من الهجويري، فهناك النفوس التي انشغلت بأهوائها وأعرضت عن طريق الرضا، وهؤلاء النفوس مدعون كاذبون. فلم يتعلموا ولم يقرأوا هذه المقامات. وفريق آخر من النفوس قرأوها - المقامات - ولم يدركوا معناها، واكتفوا بعباراتها ليكتبوها ويحفظوها ويقولوا أننا نتكلم في علم التصوف والمعرفة، وهم له منكرون". وحديث الهجويري هنا لم يكن حديثاً عن سيمياء التي تشمل التنبؤ بالغيب عن طريق مراسم التأويل الباطني للأسماء والحروف وحركات الكواكب والأفلاك، وإنما أظهر الكيمياء كعمل تجريبي واقعي لتمييز الغث من الثمين!.

لهذا فإن رموز وإشارات الصوفية بمثابة معيار لتبين الصوفي الحق من أدياء التصوف، وكأن الرموز والإشارات بمثابة الكبريت الأحمر الذي يبرز النفوس الصحيحة من النفوس المريضة، فكأنه يبرز الفضة والنحاس من الذهب الخالص. فكل واحد غذاء وسعادة، فهناك سعادة البهائم في الأكل والشرب والنوم والنكاح ... وهناك سعادة الملائكة في مشاهدة جمال الحضرة الربوبية، وليس للغضب والشهوة إليهم طريق فإن كنت من جوهرة الملائكة فاجتهد في معرفة أصلك حتى تعرف الطريق إلى الحضرة الإلهية، وتبلغ إلى مشاهدة الجلال والجمال وتخلص نفسك من قيد الشهوة والغضب. (2) وفي الجملة: كل يطلب الدواء الذي يوافق علته، ولا يلزمه غيره. كما يقول واحد من الكبار.

فكل من في فؤاده وجع يطلب شيئاً يوافق الوجعاً (3) أي أن حقيقة التصوف تقتضي فناء صفة العبد، وفناء صفة العبد يكون ببقاء صفة الحق، وهذا نعت الحق. ورسمة يقتضي دوام مجاهدة العبد والمجاهدة صفة العبد. يقول أبو علي شقيق بن إبراهيم الأزدي ت 174 هـ إن الله جعل أهل طاعته أحياء في مماتهم وأهل المعاصي أمواتاً في حياتهم وهذا المقصود عندهم بأكسير الحياة في الخلود. أي أن المطيع يكون حياً، وإن يكن ميتاً، لأن الملائكة تنثني على طاعته إلى يوم القيامة، وثوابه مؤبد، فهو باق في فناء الموت ببقاء الله.

(1) الهجويري، كشف المحجوب، ج1، مصدر سابق، ص198.

(2) الغزالي، كيمياء السعادة، مصدر سابق، ص75.

(3) الهجويري، كشف المحجوب، ج2، مصدر سابق، ص198، 223.

وهناك من يدعي على الرازي الطبيب بأنه ألف كتاباً في السيمياء وأهداه إلى المنصور، فكافأه بألف دينار، إلا أنه لم يستطيع تنفيذ ما جاء به في هذا الكتاب، فضرب بالسوط على رأسه وبكتابه حتى يتمزق، فيقال أن ذلك الضرب هو سبب نزول الماء في عينيه. (1) إلا أن هذه الرواية ليست أكيدة، لأن الرازي الطبيب لم يشتغل بالسيمياء، بل صرف جل وقته في دراسة الطب والكيمياء. كما أنها رواية من نسيج الخيال ليس لها سند علمي.

على العموم من يعتقد أن كون هذه الأفلاك "الكواكب" في البروج وسيرها وحركاتها دلالة على حدوث ما يحدث من الأمطار والنماء والنقصان وغلاء الأسعار وسفك الدماء وسكون الهيج. وإن المنجمين القارئ لحركة هذه الكواكب يستطيعون التنبؤ بأحداث في المستقبل، فإن ذلك خبط وتخليط، فلقد أخبر الله تعالى عن كذب مدعي علم ذلك، وأنه تعالى المستبد بعلم ما كان وما يكون، قال تعالى (وَأَنْبِئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ) [آل عمران/49] فجعل ذلك من دليل النبوة ومما لا يطلع عليه إلا من أوحى إليه به. وقال تعالى: (إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) [لقمان/34/31] وقال تعالى (عَالِمِ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا) (26) إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ [الجن/26/27] وفي نظائر هذه الآيات ما يدل على أن علم ما يكون لا يُدركه إلا علام الغيوب أو من أطلعه على ذلك. فكيف يُدرك ذلك بقطع الأفلاك وسير النجوم؛ وكيف يجتمع في قلب مؤمن تصديق الرسل وتصحيح الآيات مع اعتقاد تصحيح أحكام المنجمين (2) واعتقاد كون سير الأفلاك أدلة على علم ما كان ويكون؟ وقد روي عن النبي، صلى الله عليه وسلم أنه قال: "من صدق كاهناً أو عرافاً - وفي بعضها: أو منجماً - فقد كفر بما أنزل الله على قلب محمد".

صحيح ذهب أهل السنة إلى أن السحر ثابت وله حقيقة. وذهب عامة المعتزلة وأبو إسحاق الاسترابادي من أصحاب الشافعي إلى أن السحر لا حقيقة له، وإنما هو تمويه وتخيل وإيهام لكون الشيء على غير ما هو به، وأنه ضرب من الخفة والشعوذة؛ كما قال تعالى "يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى" [طه/68] ولم يقل تسعى على الحقيقة، ولكن قال "يُخَيَّلُ إِلَيْهِ". وقال أيضاً: "سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ" [الأعراف/116]. وعند القرطبي السحر حق وله حقيقة. (3) فإن السحر في أصول أهل السنة والجماعة حق كالكرامة، وإظهار السحر في حال الكمال كفر، وإظهار الكرامة في حال الكرامة معرفة، لأن الأول يكون نتيجة سخط الله جل جلاله، والآخر

(1) الطائي، أعلام العرب في الكيمياء، مرجع سابق، ص100.

(2) الباقلاني، التمهيد، تصحيح الأب تشارد يوسف اليسوعي، المكتبة الشرقية، بيروت، 1957م، ص58/59.

(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج2، مصدر سابق، ص44/46.

قرينة رضاه. إن الله اصطفى من البشر أشخاصاً فضلهم بخطابه، وفطرهم على معرفته، وجعلهم وسائل بينه وبين عباده ... [وأظهر] على ألسنتهم من الخوارق والأخبار الكائنات المغيبة عن البشر التي لا سبيل إلى معرفتها إلا من الله بوساطتهم، ولا يعلمونها إلا بتعليم الله إياها ... وخبرهم في ذلك من خاصيته وضرورته الصدق، وذلك حقيقة النبوة.

وهذا تفسير واضح للفرق بين أعمال السحرة وأفعال الأنبياء والأولياء، فلا يُنكر أن يظهر على يد الساحر خرق العادات مما ليس في مقدور البشر من مرض وتفريق وزوال عقل وتعوج عضو، إلى غير ذلك مما قام الدليل على استحالة كونه من مقدورات العباد. ولا يبعد في السحر أن يستدق جسم الساحر حتى يتولج في الكوات، والجري على خيط مستدق، والطيران في الهواء والمشي على الماء وغير ذلك. ومع ذلك فلا يكون السحر موجباً لذلك، ولا علة لوقوعه ولا سبباً مولداً، ولا يكون الساحر مستقلاً به، وإنما يخلق الله تعالى هذه الأشياء ويُحدثها عند وجود السحر؛ كما يخلق الشبع عند الأكل. والري عند شرب الماء ... لهذا قال تعالى: " وَمَا هُمْ بِضَارِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ " [البقرة/102] "ما هم" إشارة إلى السحرة. وقيل إلى الشياطين. "بضارين به" أي بالسحر. "من أحدٍ" أي أحداً؛ ومن زائدة. "إلا بإذن الله" أي بإرادته وقضائه لا بأمره؛ لأنه تعالى لا يأمر بالفحشاء ويقضي على الخلق به. وقال الزجاج: "إلا بإذن الله" إلا بعلم الله. (1)

كل دجل وشعوذة وتحريف مصدره اليهود. وأن اليهود قد استئصلوا من الحجاز، وانتقلوا شمالاً إلى الشام، كما ذهب البعض منهم إلى الكوفة. ولكن بقي عدد منهم في اليمن، وسرعان ما أخذ يهود اليمن يفدون إلى الحجاز، وقد اعتنق البعض منهم الإسلام. وكان هؤلاء ينتمون إلى أفخاذ عربية تهودت قبل الإسلام، وكان البعض الآخر يهودياً خالصاً. ودخل بعض أحبار الفريقين الإسلام، وهم على ضغن وحقد عليه وتربص له. وكانت رائحة الفتنة تطل منذ عهد عثمان، الخليفة السهل اللين، ورأى هؤلاء الأحبار الفرصة مواتية، لقد أبعد عليّ عن الخلافة ثلاث مرات، وعليّ صاحب العلم وابن عم الرسول وصهره، وقد كان له بمنزلة هارون من موسى، وكان "باب علمه" فألقي هؤلاء اليهود بفكرة "الإمام المعصوم" و"خاتم الأوصياء".

وقد قال المحققون من أهل السنة أن عبد الله بن السوداء في الأصل يهودياً من أهل الحيرة باليمن فأظهر الإسلام، ظهر، فهو على هوى دين اليهود، وأراد أن يفسد على المسلمين دينهم بتأويلاته في علي وأولاده لكي يعتقدوا فيه ما اعتقدت النصارى في عيسى عليه السلام، فانتسب إلى الرافضة السبئية حين وجدهم أعرق أهل الأهواء في الكفر، ودلس ضلالتهم في

تأويلاته ... وكان أول ظهور التشبيه والتجسيم صادر عن أصناف من الروافض الغلاة. فمنهم السبئية أتباع عبد الله بن سبأ الذين سموا عليًا إلهًا، وشبهوه بذات الإله ... ويقال لابن السوداء: ليس عليّ عندك وعند الذين تميل إليهم من اليهود أعظم رتبة من موسى، وهارون، ويوشع بن نون، وقد صح موت هؤلاء الثلاثة، ولم ينبع لهم في الأرض عسل ولا سمن سوى نبوع الماء العذب من الحجر الصلد لموسى وقومه في التيه، فما الذي عصم عليًا من الموت وقد مات ابنه الحسين وأصحابه بكرىء عطشًا ولم ينبع لهم ماء فضلًا عن عسل وسمن؟! (1)

فمن فسد من علمائنا كان فيه شبه من اليهود؛ ومن فسد من عبادنا كان فيه شبه من النصارى، أي عقيدة الحلول والاتحاد عقيدة فاسدة تدعو إلى الانحراف والكفر والزندقة وأنها ليست من مسائل العقيدة السليمة التي تحض عليها التعاليم الإسلامية الحقّة. ووضح في دليل القرآن ونصه ما ينفي استحالة الاتحاد أو التجسد أو الحلول. ويظهر ذلك على يد غلاة الشيعة الباطنية وهم في الأصل امتداد للفكر اليهودي. والقرآن الكريم كان واضحًا وحاسمًا في الرد على أصحاب مذهب وحدة الطبيعة، فحتى المعجزات والكرامات صورها اليهود في صور مادية طبيعية خالية من كل معنى ومن كل روح، فلقد نفى القرآن هذه المعاني وأعلن تكفير أصحابها. فلا غربة إذن أن يأتي الباقلاني في كتابه التمهيد ويناقش هذه النظريات مناقشة دقيقة يثبت فيها استحالة التجسد والاتحاد وكل ما يرتبط بهذه النظريات المنحرفة الخبيثة، ولا غربة أن يأتي الغزالي ت505هـ فيحض في كتبه هذا البطلان، ثم يأتي ابن تيمية فيقيم الدنيا ويقعدها دفاعًا عن دينه ومنهجه القويم. بل يأتي أحد علمائنا الأفذاذ فخر الدين الرازي ليوضح لنا صورة المعجزة الحقيقية البعيدة عن صور الطبيعة المادية، فيقول: "تنقسم المعجزة قسمين: حسية، وعقلية. أما الحسية فتلثاثة أقسام: أحدها: أمور خارجة عن ذات الرسول. وثانيها: أمور في ذاته. وثالثها: أمور في صفاته. والأشياء الخارجة عن ذاته كثيرة منها انشقاق القمر ... أما الأمور العائدة إلى ذاته: فهو مثل النور الذي كان ينتقل من أب إلى أب، إلى أن خرج إلى الدنيا. وأما ما يتعلق بصفاته فهي كثيرة، ومنها أنه الصادق الذي لم يعرف عنه في الدين أو الدنيا الكذب البتة. كما أنه لم يقدم على فعل قبيح، لا قبل النبوة أو بعدها. أما المعجزات العقلية، فمنها أنه ظهر في قبيلة ما كان أهلها من أهل علم ومع ذلك كان يستطيع اخبار عن المغيبات الماضية، فلقد أخبر وقائع المتقدمين من غير قراءة كتاب، ولا استفادة من إنسان. (2)

(1) البغدادي، الفرق بين الفرق، تحقيق د/ محمد محيي الدين عبد الحميد، مكتبة دار التراث، ط2، القاهرة، 2007م، ص237.

(2) الرازي، الأربعين في أصول الدين، ج2، تحقيق د/ أحمد حجازي السقا، دار الجيل، ط1، بيروت، 2004م، ص303.

فإنه لو كانت هذه الأجناس وما يجري مجراها مما يصح اكتساب العباد لها بضرب من الحيلة، لوجب لا محالة أن يكون أهل التدقيق والحدق بتلك الصنعة أقدر عليه ممن سواهم ومن لا يدانيهم في الحدق بها ... ولكان أفلاطون وسقراط وبقرات ومن انتهى إليه علم الطب من هؤلاء وتلامذتهم أعرف الناس بوجه الحيلة ومعرفة العقاقير والأدوية التي يحيا بها الميت ويبرأ بها الأكمه". (1)

لا بد لنا أن نعلم بأن ابن سبأ من أولياء الشيطان، قال تعالى: "وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا" [النساء/119] وقال تعالى " أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا" [الكهف/50]. وقد بين سبحانه وتعالى في كتابه وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم أن لله أولياء من الناس. وللشياطين أولياء. ففرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، فقال تعالى: "أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (62) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (63) لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ" [يونس/64/62]. قال عامر بن عبدة سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول: "إن الشيطان يتمثل في صورة الرجل. فيأتي القوم فيحدثهم بالحديث الكذب. فيتفرقون. فيقول الرجل منهم: سمعت رجلاً أعرف وجهه، ولا أدري ما اسمه يحدث". (2)

وتكاد تجمع كتب العقائد الإسلامية على أن عبد الله بن سبأ، وهو أول من دعا إلى فكرة القداسة التي نسبت إلى علي، كان يهودياً قبل أن يعتنق الإسلام نفاقاً. بل يذهب بعض المؤرخين إلى أن عدداً من الصحابة وبخاصة أبي ذر الغفاري وعمار بن ياسر، وغيرهما من صغار الصحابة وأبنائهم كمحمد بن أبي بكر ومحمد بن أبي حذيفة قد وقعوا أيضاً في أحابيل هذا الرجل، كما أن أفكار الرجعة والبداء والمهدي والأسباط وغيرها من آراء شيعية غالية، يهودية الأصل، كما أن : الكيسانية" وهي أخطر فرق الشيعة الغالية قد تأثرت أشد تأثر بالآراء اليهودية. كما ثبت اتصال الغلاة، وبالأخص في الكوفة، باليهود فيها، وقد تعلموا منهم السحر والنيرنجات، ويذهب كثيرون من مؤرخي أهل السنة إلى أن مؤسس الإسماعيلية يهود انتسبوا للإسلام مستخدمين أفكاراً يهودية وغنوصية للقضاء على الإسلام باسم أولاً إسماعيل بن جعفر الصادق. (3)

ولم تكن بلاد الشام بعيدة عن هؤلاء الغلاة من الشيعة ولنا أن نتذكر بأن بلاد الشام هي المعقل الأول لليهود، وكانوا الغلاة من الشيعة يستخدمون السحر والطلسمات والنيرنجات،

(1) الباقلاني، البيان، مصدر سابق، ص60.

(2) صحيح مسلم، باب النهي عن الرواية عن الضعفاء، ص12.

(3) د/ على سامي النشار، نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، ج1، مرجع سابق، ص68.

ويحاولون أن يموهوا على العوام بكل هذا. وقيل أن البعض تعلموا من اليهود، بل أقول بأنهم هم يهود. وكان لابد لهؤلاء الغلاة - وهم يموهون بهذه الأعمال شبه الخارقة أن يظهروا للعوام "الزهد والتقشف ولبس الصوف". وكانوا يقومون قبل مزاوله سحرهم بأنواع من الطقوس والتجرد ومحاولة الاتصال بعالم الروح والروحانيات.

وهؤلاء كثيرون مثل "الحارث الدمشقي" الذي خرج بالشام زمن "عبد الملك بن مروان" وادعى النبوة، وكانت الشياطين يخرجون رجليه من القيد، وتمنع السلاح أن ينفذ فيه، وتسبح الرخامة إذا مسحها بيده، وكان يرى الناس رجالا وركبانا على خيل في الهواء، ويقول: هي الملائكة، وإنما كانوا جنًا، ولما أمسكه المسلمون ليقتلوه طعنه الطاعن بالرمح فلم ينفذ فيه، فقال له عبد الملك: إنك لم تسم الله فسمى الله فطعنه فقتله. (1) بل يذكر ابن حجر (2) أن المغيرة تعلم السحر وكان ساحرًا. وكان سبئيًا وصاحب نيرنجات. بل إن عبد الله بن معاوية نفسه كان يظهر الزهد ويلبس الصوف. فغلاة الشيعة إذن كانوا من أوائل من لبسوا الصوف وأظهروا التزهد. (3)

إذن لم تسلم الشام من غل غلاة الشيعة على الإسلام، فبدأنا نلمس الأفكار الهرمسية التي في الأصل تعبر عن أفكار الكهنة اليهود طريقها إلى المسلمين في صورة الشيعة الغلاة، فمن الواضح أن أفكار الهرمسية تسللت إلى التصوف الإسلامي عبر بوابة التشيع المغالي. وإذا نظرنا بوجه عام إلى النصوص الهرمسية وجدنا أنها مجموعات لما يسمى باليونانية Logos: والترجمة الحرفية لهذه الكلمة هي قول أو قول العقل. وهذه الفكرة لها تأثير كبير وواضح على انجيل يوحنا "في البدء كان الكلمة" وهي عقيدة حلولية بامتياز. فالمؤلفات الهرمسية هي مجموعة "أقوال" ترتبط بعلم النجوم والفلك والسحر وعلم السيمياء. (4) وأخذ الغلاة هذه الأفكار مع سمة أخرى كما يقولون المؤرخون "تنسموا بالزهد وأظهروا التقشف" بحيث يقول ابن الأثير "إنهم تعلموا الشعبة والنيرنجات والنجوم والسيمياء فهم يحتالون على كل قوم بما ينفق عليهم، وعلى العامة بإظهار الزهد". (5) إذن لم يسلم المعسكر الآخر، معسكر الأمويين من أثر اليهود وأضرارهم - فكما لعبت شخصية عبد الله بن سبأ دورها الكبير في إثارة الفتنة في معسكر علي وشيعته - لعب كعب الأحبار نفس الدور في معسكر عثمان وشيعته أولاً، ثم في معسكر معاوية، والأمويين

(1) ابن تيمية، الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، مصدر سابق، ص164.

(2) ابن حجر، لسان الميزان، ج1، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ط2، بيروت، 1971م، ص78/75.

(3) الطبري، تاريخ الطبري، ج3، مصدر سابق، ص149.

(4) نجيب بلدي، تمهيد لتاريخ مدرسة الإسكندرية، مرجع سابق، ص95.

(5) ابن الأثير، الكامل، ج8، تحقيق عمر عبد السلام، ادار الكتاب العربي، ط، بيروت، 1997م، ص21.

وشيعتهم ثانيًا، بل كان دور كعب الأحبار في حلقة عثمان أشد وأقسى. لقد وفد كعب الأحبار - معلناً الإسلام - إلى المدينة في عهد عمر. وكان كعب الأحبار، وقد ادعى "علم الكتاب" يقص، ويستمتع عمر لقصصه، وتذكيره، ووصفه للجنة وللنار ولمشاهدهما. وكانت عينا عمر متفتحة وأذناه صاغيتين لكل مستحدث يخالف الإسلام. وكان كعب الأحبار يعلم هذا، فلم يستطع - في عهد عمر - أن يدلي بدلو في إثارة الفتنة، وإلقاء بذور الحقد بين المسلمين. وما أن تولى عثمان، حتى أخذ الرجل يقوم بدوره في إثارة الأمويين على بني هاشم، مقابلًا لعبد الله بن سبأ، الذي كان يقوم بدوره في إثارة الهاشميين ومحبي عليّ على بني أمية، وكان كعب الأحبار يلعن "الكوفة" كما كان عبد الله بن سبأ يلعن "دمشق" بل يقال إن كعب الأحبار قد نهى عمر نفسه عن الذهاب إلى الكوفة بدعوى أن فيها "الشياطين والجن والأرواح الشريرة". وجد كعب الأحبار الفرصة مواتية في رحاب عثمان، ثم انتقل إلى الشام مثيرًا للأمويين فيها... وكان يحمل "علم النجوم والسحر والطلسمات" وأراد عبد الله بن عمرو بن العاص، وهو شخصية غريبة تنسبت بالزهد، أن يتعلم منه بعض هذه العلوم. ثم اتصل ابن زوجته اليهودي، والذي لم يعتنق الإسلام، بالأمراء المترفين الحالين في قصورهم، فألقى إليهم بعلوم الصنعة والسحر والنيرنجات ... هكذا كان يعمل اليهود في هذا المجال السري، وكانت غايتهم الوحيدة، تقويض الإسلام. (1)

إذن عن الكوفة والشام صدرت نماذج الحياة الروحية المختلفة، النموذج الشيعي الغالي، والنموذج الشيعي المعتدل - إماميًا كان أو زيديًا -، والنموذج السني الخالص. فإن الشخصية الثالثة التي أطلق عليها لقب صوفي وتمثل الصوفية السنية هو أبو هاشم عثمان بن شريك، وقد اختلف في أمر أبي هاشم هذا، هل هو كوفي، أم شامي، أم بغدادي، ومما يرجح أصله الكوفي، هو أن أهم أقواله، نقلها إلينا سفيان الثوري - الكوفي - وهو قول "لولا أبو هاشم ما عرفت دقائق الرياء"، ولكن تجمع المصادر على أنه كان أمويًا، وعاش بالشام، وبالرملة، ثم انتقل في العهد العباسي إلى بغداد. (2) أما في الكوفة ظهرت الطائفة الأولى: التي ربطت بين التشيع المغالي والتصوف فكان على يد أبو الخطاب الأسدي، وتلتها طرق الإسماعيلية، ودخلت فكرة الاسم الأعظم والإمام والوصفاء والنقباء، والحجج وانعكست إلى حد كبير على فكرة الغوث والأقطاب والأبدال عند فلاسفة الصوفية. وكان يمثل هؤلاء عبدك الصوفي.

(1) نفس المصدر السابق، ص 69.

(2) نفس المصدر السابق، ص 278.

أما الطائفة الثانية: فهي طائفة أهل الصنعة، والصنعة هي معرفة السيمياء والسحر والطلاسم. وهؤلاء الطوائف الثلاثة كان يطلق عليهم لقب صوفي ولكن شتان بين المعنى بين تلك الطوائف. فهناك فرق بين عبادة الولي وإدعاء العبادة عند الساحر.

فإن رحلة اليهود تبدأ من مصر ثم دمشق وحران وبابل. فإن طريق الكلدان "بابل" هو طريق المنجمين وعلماء الفلك. وطريق منف وطيبة هو الكيمياء السحرية "السيمياء". وكان لابد من وجود طريق جديد آخر يلقي فيه اليهود الله أو يقتربوا منه على الأقل فلبسوا الخشن وزهدوا في الدنيا. إن حران رمز للنفس الإنسانية، للإنسان الذي يحاول معرفة الحقيقة الإلهية بالتححرر من النظر إلى العالم الخارجي. إن رحلة اليهودي من بلاد الكلدان إلى بلاد حران لهي رمز لمحاولة الإنسان التحرر من الإحساس وأدراجه، والتطهر من الأجسام والبدن في سبيل معرفة الحقيقة الإلهية. إنه بامتياز دعوة الغنوص. ولم يكن على الإسلام أشد خطراً من الغنوص، سواء في الكلام أو في الفلسفة أو التصوف، بل وصل أثره إلى صميم العلوم الإسلامية فقد قامت الفرق اليهودية الغنوصية بوضع كثير من الأحاديث لتروج للغنوص في قلب التصوف والفقهاء الإسلامي، ولكن علماء الحديث قاوموا الغنوصيات، أفلوطينيات محدثة كانت أم ثنوية.

بل وصل الأمر عند اليهود أن يجعلوا من السيمياء صنعة في مركز منطوق الخلاص، بل يصل الأمر باليهودي الشيعي المغالي الجلدي (1) إلى القول بأن القرآن الكريم يحمل إشارات واضحة إلى السيمياء مثل قوله تعالى: "أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُه كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ [الرعد/17].

إذن المؤكد هرمس، هو عينه النبي إدريس المذكور في القرآن " وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيْسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا" [مريم/56] و"وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيْسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ" [الأنبياء/85]. وهو أيضًا أخنوخ التوراة المرفوع إلى السماء. وقام اليهود بمسخ هذا التاريخ وتحريفه على اعتبار هرمس/ إدريس/ أخنوخ أول من تلقى الوحي في العلوم والفنون المختلفة: علم الفلك، التنجيم والطب، والخيمياء. وهكذا نسبت هذه العلوم إليه. في حين اعتبرت الخيمياء العلم الهرمسي، أو علم هرمس بامتياز.

فيرى فيلون اليهودي ت40م أن أفلاطون قرر بأن للعالم نشأة وميلاداً وأنه ليس بذاته معرضاً للفساد والانحلال. وأن أفكار أفلاطون عن النفس هي نفس أفكار موسى النبي، إنه يحس

(1) بيبيرلوري، من تاريخ الهرمسية، مرجع سابق، ص122.

إذن - فيلون - باتفاق ضمني بين أفلاطون ودين التوراة، بل يذهب أبعد من ذلك، فيقول بأن بعض أسفار العهد القديم كتبت تحت تأثير فيثاغوري وأفلاطوني وبالتحديد المنسوب إلى سليمان الحكيم، وبوجه أخص سفر "الحكمة" ذاته. (1)

وأثبتنا علاقة فيثاغورث بسيدنا سليمان وأتباعه، فلدينا إذن موسى مصري ومن قبله إدريس مصري وسليمان أيضًا دخل مصر، إذن سوف نكتشف ونحن نتقدم في دراستنا هذه خطوة بعد خطوة المزيد من الدلائل والبراهين التي تقضي بنا إلى نتيجة محددة مفادها أن فلاسفة اليونان لم يكونوا أصحاب الفلسفة اليونانية وإنما أصحابها هم الكهنة اليهود المصريون وشرح النصوص المقدسة والرموز السرية. (2) فإن العالم الغربي جورج جي أم جيمس يعترف لنا بأمانة علمية بأن الفلسفة اليونانية هي فلسفة مصرية مسروقة. فلقد تعلم فيثاغورث دروس الرياضيات والفلسفة في مصر، فإن مصر تمثل قبلة العلم لفلاسفة اليونان أو تلامذة الفلسفة (3) المصرية. لقد استحدث المصريون القدماء مذهبًا دينيًا شديد التعقيد سمي نظام الأسرار والذي كان أيضًا أول مذهب عن الخلاص.

والدكتور بلدي ينفي أن تكون الكتابات الهرمسية مصرية، ما عدا الأقوال الخاصة بالتنجيم والكيمياء السحرية "السيمياء". والفلسفة التي تقرر بحضور الإله في العالم وبعنايته الربانية. والسؤال للدكتور بلدي أيهما أسبق الهرمسية أم اليونانية؟! هل فلسفة هرمس أو أفكار هرمس وأتباعه قبل أم بعد ظهور الفلسفة اليونانية؟!

بل يذهب إلى أغرب من ذلك، فيقول بأن (4) أفلاطون هو معلم ومرشد للفكر الشرقي وهو صاحب التقدير منهم، لاتصاله بمصر والشرق عامة. وفيثاغورث أيضًا معلمهم، بل له السبق على أفلاطون: فهو أقدم منه وأكثر اتصالًا بالشرق وأديان الشرق، إنه مفكر وفيلسوف عظيم، وأنه نبي أيضًا.

والسؤال أيضًا هل اتصال فيثاغورث بالشرق للتلامذة والتعلم؟! أم كانت زيارته لمصر زيارة العالم الفاتح بعلمه مغاليق الجهل في مصر؟! لقد صدقت عندما قلت أن فيثاغورث علم أفلاطون ما تعلمه من الشرق! فهذه هي الحقيقة وفيدون وأتباعه من لغز قابس والتفاحة وزجر النفس أكبر شاهد على ذلك!.

(1) د/ نجيب بلدي، تمهيد لتاريخ مدرسة الإسكندرية، مرجع سابق، ص82.

(2) جورج جيمس، التراث المسروق، ترجمة شوقي جلال، المجلس الأعلى للثقافة، ط1، القاهرة، 1996م، ص19/18.

(3) بنيامين فارتن، العلم الإغريقي، ترجمة د/ أحمد شكري سالم، المركز القومي للترجمة، ط1، القاهرة، 2011م، ص173.

(4) د/ نجيب بلدي، تمهيد لتاريخ مدرسة الإسكندرية، مرجع سابق، ص90.

المبحث الثاني

مفهوم المعجزة بين الولاية والنبوة

المطلب الأول: مفهوم الكهانة وأقسامها

ينتسب الكهانة إلى أبناء ليفي(1) - أحد أبناء يعقوب عليه السلام- ولا يصلون إلى الكهنوتية إلا بعد تدريبات ومعرفة الطقوس والأسرار الدينية لإثبات الاستحقاق لهذا المنصب، ومن طريقهم تقدم القرايين كما تقدم لهم العشور من نتاج الضأن، وأصبحت ثروتهم مقدسة وشخصيتهم الوسيلة إلى الله، فصاروا أقوى من الملوك في كثير من الأحوال. هذا، وقد كان المجتمع الكهنوتي الذي يدير شئون اليهود الواسطة بين الناس وبين الله، فلا تقبل التوبة ولا القرايين إلا إذا باركها الكاهن، وقد جاء عيسى للقضاء على نفوذهم، ولكن للأسف أصبح القساوسة بعده يمثلون نفس الدور مثله كهنة اليهود من قبل.

وتتازع الناس في الكهانة؛ فذهبت طائفة من حكماء اليونانيين والروم إلى التكهّن (2)، وكانوا يدعون العلوم من الغيوب، فادعى صنف منهم أن نفوسهم قد صفت فهي مطلعة على أسرار الطبيعة، وعلى ما تريد أن يكون منها؛ لأن صور الأشياء عندهم في النفس الكلية، وصنف منهم ادعى أن الأرواح المنفردة - وهي الجن - تخبرهم بالأشياء قبل كونها، وأن أرواحهم كانت قد صفت، حتى صارت لتلك الأرواح من الجن متفكة ... والكهانة اشتركت العرب فيها مع سائر الأمم، ولكن القيافة "تتبع الأثر" والزجر والتفأول والتطير ليست لغيرها في الأغلب من الأمور ... وذكر كثير من الناس أن الكهانة تكون من قبل شيطان يكون مع الكاهن يخبره بما غاب عنه، وأن الشياطين كانت تسترق السمع وتلقيه على ألسنة الكهان فيؤدون إلى الناس الأخبار، بحسب ما يرد إليهم، وقد أخبر الله عز وجل بذلك في كتابه فقال: "وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مَلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا" [الجن/18] إلى آخر القصة، وقوله تعالى: "يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا" [الأنعام/121]. وقوله تعالى: "وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ" [الأنعام/121]. والشياطين والجن لا تعلم الغيب، وإنما ذلك لاستراقها السمع مما تسمع من الملائكة بظاهر قوله عز وجل: "فَلَمَّا حَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنَّ أَن لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ" [سبأ/14].

ومن ثم فلا يقوى الكاهن على الكمال في إدراك المعقولات لأن وحيه من وحي الشيطان ... وربما يفزع إلى الظنون والتخمينات حرصاً على الظفر بالإدراك بزعمه وتمويهاً على

(1) د/ أحمد شلبي، اليهودية، مرجع سابق، ص203.

(2) المسعودي، مروج الذهب، ج2، مصدر سابق، ص148/149.

السائلين، وأرفع أحوال هذا الصنف أن يستعين بالكلام الذي فيه السجع والموازنة ليشغل به عن الحواس ويقوي بعض الشيء على ذلك الاتصال الناقص ... فربما صادق ووافق الحق وربما كذب. (1) إذن الكهانة صناعة مكتسبة بالتعليم والقصد (2)، ولكنها تستلزم استعدادًا نفسيًا خاصًا، إذ أن في بعض النفوس استعدادًا للانسلاخ من الأمور الحسية والتخلص من عوائق الهيولي، والتجرد من حجب الحس وكثافته، وإذا حققت النفس ذلك أدركت حقائق الأمور، وتجلت لها، لأن النفس علامة بالذات، ودراكة للأمور، لهذا يعرف مسكويه الكهانة بأنها: "قوة في النفس تطالع الأمور الكائنة بتخليها عن الحواس، وهي تتعلق بمعرفة الأمور المستقبلية فقط".

وللأسف انتشرت أعمال الكهانة. وكأنه شيء مدبر من اليهود. وتفتت بين المسلمين في العصر الحديث، ففي أثناء كتابتي هذا البحث يأتي علينا عامًا جديدًا، فنجد كل القنوات الإعلامية تستضيف كاهن وعراف ليخبرهم بأحوال الناس والعباد وأخبار الدول والملوك، بل وصل الأمر للسؤال عن سلعة معينة وعن صداقات وزيجات الفنانين من سيستمر ومن سيفصل. مستغلين - الكهان - ضعف النفوس البشرية التي تتشوف دائمًا إلى عواقب أمورهم، وعلم ما يحدث لهم من حياة وموت وخير وشر. لذلك نجد الكثير من الناس يتشوفون إلى الوقوف على ذلك في المنام والأخبار من الكهان لمن قصدهم بمثل ذلك من الملوك والسوقة معروفة، بل ظهر طائفة من الناس ينتحلون المعاش من ذلك لعلمهم بحرص الناس عليه، فينتصبون لهم في الطرقات وشاشات التلفاز وحتى الدكاكين، فنجد ما بين خط في الرمل ويسمونه المنجم، وطرق بالحصى والحبوب ويسمونه الحاسب، ونظر في المرايا والمياه ويسمونه ضارب المندل. وكل ذلك من المنكرات الفاشية في الأمصار، لما تقرر في الشريعة من ذم ذلك. وهذا الاضطراب والخلط جعل الناس يخلطون بين الكاهن "المتنبى" والولي بل وصل الأمر إلى ادعاء الكاهن النبوة - وما أكثر ذلك اليوم-، فيظهر من يقول أو يزعم بأنه ولي، بل يزعم البعض أنه نبيًا. فإنه لا يجوز أن يورد العاقل المميز الكامل كلامًا متناقضًا وقولًا مستحيلًا يخالف بعضه بعضًا، ولا يجوز أن يكون عاقل يشهد لغيره بالصدق والنبوة، ويزعم أنه على منهاجه وأنه يريد أن يشد بنيانه، ثم ينقض كلامه ويهدم بنيانه، مثل ما ادعاء الكاهن من تناقض كلام الأنبياء والخلاف من بعضهم على بعض وهدم بعضهم بنيان بعض. فإن كان الأولياء الذين أخذت عنهم هذه الكتب ورويت عنهم هذه الأخبار، مثل: موسى وعيسى ومحمد- صلوات الله عليهم جميعًا- معروفين بالجهل والغباوة والحمق والجنون، فالقول فيه ما قال الكاهن - ونعوذ

(1) ابن خلدون، المقدمة، ج1، مصدر سابق، ص418.

(2) مسكويه، الفوز الأصغر، تقديم ودراسة د/ عبد الفتاح أحمد فؤاد، دار الوفاء، ط1، الإسكندرية، 2010م، ص137.

بالله أن يكون كذلك - بل الأولياء الذين يقتدي بهم أصحاب الشرائع، مثل موسر وعيسى ومحمد وغيرهم من الأنبياء كانوا مشهورين بالكمال والعقل والتميز والسياسة والجمع لكل خلق محمود؛ وكيف لا يكون كذلك مع سياستهم للأنام وجمعهم إياهم على شرائعهم؛ وكما اتفقت الأمم التي شاهدت محمدًا صلى الله عليه وسلم، أنهم وجدوه تامًا في عقله وحلمه وأناته وتدبيره، وسياسته للخاص والعام، وكماله في جميع الخصال التي يحتاج إليها السائس للبرية.

1- الفرق بين الكاهن "المتنبي" والنبي.

هذا الخلط ألح علينا لنفرق بين النبي والكاهن، فقليل أن النبي لفظ منقول في العرف عن مسماه اللغوي. فقليل: هو المتنبي (1) من النبأ لإنبائه عن الله تعالى، وقيل: من النبوة وهو الطريق لأنه وسيلة إلى الله تعالى، وأما في العرف: فهو عند أهل الحق من قال له الله أرسلتك، أو بلغهم عني ونحوه من الألفاظ، ولا يشترط فيه شرط ولا استعداد، بل الله يختص برحمته من يشاء من عباده، وهو أعلم حيث يجعل رسالاته، وهذا بناء على القول بالقادر المختار.

لذا فإن أول اختلاف جوهري بين الكاهن والنبي، أن معجزات الأنبياء ليست حالة نفسية أو ذهنية، كما ادعى بعض فلاسفة (2) الإسلام على إرجاعها إلى قوى نفسية، فيقولون: إن لقوى النفس تأثيرًا، ولكنهم لا يدعون أن تأثيرها يبلغ إلى أن ينزل ماء الطوفان الذي أغرق أهل الأرض، ولا أن يرسل الريح العقيم سبع ليال وثمانية أيام حسومًا التي أهلكت عادًا، ونحو ذلك من أمور كثيرة قصها الله مما تثبت المعجزات للأنبياء وإنها خارجة عن قوى النفس، كما أن تأثير النفوس مشروط بإرادة هذه النفوس وشعورها، ولكن من معجزات الأنبياء ما لا يكون النبي شاعرًا بها، ومنها ما لا يكون مريدًا لها، فلا يكون ذلك من فعل نفسه، بل ومنها ما يكون قبل وجوده، ومنها ما يكون بعد موته، مثال ذلك ما ورد في قصة أصحاب الفيل الذين أرسل الله عليهم طيرًا أبابيل، وكان ذلك كرامة للنبي - صلى الله عليه وسلم - وكان عام الفيل عام مولده - عذرًا للقارئ خلطى بين المعجزة والكرامة، فهما من جنس واحد -، وقد حدثت هذه الكرامة قبل مولده بنحو خمسين ليلة، فلم تكن له قوة نفسانية يؤثر فيها، ولا شعور بما جرى، ولا إرادة له في ذلك، وكذلك بقاء الكعبة ألوف السنين بعد موت من بناها كرامة لإبراهيم الخليل عليه السلام.

(3)

(1) د/ محمد جلال شرف، التصوف الإسلامي في مدرسة بغداد، دار المطبوعات الجامعية، ط1، الإسكندرية، 1975م، ص337.

(2) ابن سينا، الإشارات والتنبيهات مع شرح الطوسي، تحقيق د/ سليمان دنيا، دار المعارف، ط2، القاهرة، 1968م، ص105.

(3) د/ عبد الفتاح فؤاد، فلاسفة الإسلام، دار الوفاء، ط1، الإسكندرية، 2006م، ص105.

فإن التكهّن سبب نفساني لطيف يتولد من صفاء مزاج الطباع، وقوة النفس، ولطافة الحس. (1) والكهانة عند اليهود تعني العلم، وكانوا يسمون العالم بالعبرانية كاهنًا. وكان في التوراة اسم "هارون" أخي "موسى" عليهما السلام كهنوتًا يعني عالمًا ربانيًا. (2) ولا أمة خلت إلا وقد كان فيها كهانة، ولم يكن الأوائل من الفلاسفة اليونانية يدفعون الكهانات، وشُهرَ فيهم أن فيثاغورث كان يعلم علومًا من الغيب وضروريًا من الوحي؛ لصفاء نفسه وتجردها من أدران هذا العالم، والصابئة تذهب إلى أن أوريايس الأول وأوريايس الثاني - وهما: هرمس، وأغاثييون - كانا يعلمان الغيب؛ ولذلك كانوا أنبياء عند الصابئة. (3)

لذلك يفسر ابن حزم السحر - وهو أداة من أدوات الكهنة - تفسيرًا سيكولوجيًا خالصًا، ويرجعه إلى ضروب من حيل الحواة، تترك آثارًا نفسية شديدة توهم من يشاهدها بأنها حقائق، وما هي إلا أوهام وخيالات خادعة. "وأما إحالة الأعراض من الغيرات التي تزول بغير فساد حاملها فقد تكون بالسحر. ومنه طلسمات كتتنفير بعض الحيوان عن مكان ما فلا يقرب أصلًا، وكإبعاد البرد ببعض الصناعات، وما أشبه هذا، وقد يزيد الأمر ويفشو العلم ببعض هذا النوع حتى يحسبه أكثر الناس كالطب والأصباغ ... وأما التخيل بنوع من الخديعة كسكين مثقوبة النصاب تدخل فيها السكين ويظن من رآها أنها دخلت في جسد المضروب بها، في حيل غير هذه من حيل أرباب العجائب [وهذه الحيل] أمر يقدر عليه من تعلمه، وتعلمه ممكن لكل من أراد". (4)

إذن أول محاولة تضليل وخداع قام بها أحبار اليهود "الكهان" هو اختراق مفهوم المعجزة، فيرى الإمام فخر الدين الرازي بأن الكهان أرادوا نفي النبوات بنفي المعجزات والطعن فيها، فيشاع بين الناس بأن المعجزات لا يمكن أن يعلم أنها حدثت بفعل الله وتخليقه. ومتى تعذر ذلك امتنع الاستدلال بها على صدق المدعي. وكأن انخراق العادة وحدث المعجزة في عرف هؤلاء الكهان هي حالة مزاجية ترتبط بالبدن (5)، فإذا حدثت هذه الحالة المزاجية كان لها آثار مختلفة وخواص متباينة، فإذا ارتبطت أو اختصت ببدن هذا الشخص، قدر على الإتيان بمثل هذه المعجزات. وهذا التقرير يؤصل لمبدأين في منتهى الخطورة. المبدأ الأول: وهو أن الله سبحانه وتعالى لم يكن هو الخالق لهذه المعجزات. أما المبدأ الثاني: وهو شيوع حدوث المعجزة

(1) المسعودي، مروج الذهب، ج2، مصدر سابق، ص149.

(2) أبو بكر الرازي ت654هـ، منارات السائرين ومقامات الطائرين، تحقيق د/ سعيد عبد الفتاح، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1999م، ص137.

(3) المسعودي، مروج الذهب، ج2، مصدر سابق، ص149.

(4) ابن حزم، الفصل في الملل والنحل، ج1، تحقيق د/ محمد إبراهيم نصر، دار الجيل، بيروت، د. ت، ص146.

(5) فخر الدين الرازي، المطالب العالية، ج8 [في النبوات وما يتعلق بها] دار الكتاب العربي، ط1، بيروت، 1987م، ص43.

على يد كثير من الناس وليست اختصاصاً للأنبياء، فمجرد أن تكون الأبدان على هيئة مزاجية معينة أو تكون النفس الناطقة على ماهية معينة كانت مخصوصة على الإتيان بهذه الخوارق. فالمعيار هنا ترتيب النفوس البشرية حسب التعقلات، فالأكثر عقلانية أو تكون فيه الرغبة النطقية أكثر من أحوال القوة الشهوانية والغضبية، كان أكثر استعداداً لظهور المعجز على يديه، وهذا أكثر كلام فلاسفة الصوفية. وبالتالي فإنه لا يمتنع حدوث إنسان مخالف لسائر الناس، إما في جوهر النفس، وإما في الآلات البدنية، والتركيبات المزاجية. ولأجل تلك الخصوصية، قدر على الإتيان بما يعجز عنه غيره. "فكيف من له عروج وشهود وقبول نور عقلي؛ فإخوان التجريد أطاعتهم الهولي فلا يستبعد منهم أن يحدث بدعائهم زلزلة أو وباء، أو خسف، أو عدم تنفير طير، أو سبع، أو استقساء، أو استشفاء، وغير هذه الأشياء مما يمكن". (1)

لذلك يرد القرآن عليهم قال تعالى: "فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ" [الأنعام/33]. فمن الغريب أن يكون الكهان هم أولى الناس بالنبوة والأنبياء، فيجب على الكاهن الصادق بمجرد أن يلوح أمر النبي، فإنه يعرف فضله، ويكون أول مؤمن به، ومتبع لأمره كما روي عن سواد بن قارب، وطلحة الأسدي وغيرهم من الكهنة الذين آمنوا فيما بعد وحسن إسلامهم. والمدارك التي تحدث للكاهن تخدم في زمن النبوة، كما تخدم الكواكب والسرر عند وجود الشمس، لأن النبوة هي النور الأعظم الذي يخفى معه كل نور ويذهب. وقد زعم بعض الحكماء أن الكهانة توجد بين يدي النبوة، ثم تنقطع، وهكذا مع كل نبوة وقعت، لأن وجود النبوة لا بد له من وضع فلكي يقتضيه وفي تمام ذلك الوضع تمام تلك النبوة التي دل عليها ... بل يذهب ابن خلدون (2) إلى أبعد من ذلك، فيرى أن هؤلاء الكهان إذا عاصروا زمن النبوة فإنهم عارفون بصدق النبي ودلالة معجزته، لأن لهم بعض الوجدان من أمر النبوة كما لكل إنسان من أمر النوم. ومعقولية تلك النسبة موجودة للكاهن بأشد مما للنائم. ولا يصدهم عن ذلك ويوقعهم في التكذيب إلا قوة المطامح في أنها نبوة لهم، فيقعون في العناد كما وقع لأمية بن أبي الصلت فإنه كان يطمع أن يتنبأ، وكذا وقع لابن صياد ولمسيلمة وغيرهم.

وهؤلاء المعاندون وصفهم القرآن بأنهم ظالمون لأنفسهم أي: لا يجدون الرسول كذاباً، ويعرفونه بالصدق، ولكن يظلمون أنفسهم ويجحدون الحق ويستكفون منه. فإن قال قائل، فلم قالوا له أنك مجنون حتى أنزل الله عز وجل: "ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ" [الدخان/14]،

(1) السهروردي "اللمحات في الحقائق"، مصدر سابق، ص218.

(2) ابن خلدون، المقدمة، ج1، مصدر سابق، ص420.

وأنزل قوله: " أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُكْرُورٌ (69) أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمُ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمُ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ " [المؤمنون/70/69]. قلنا: إنهم لم يعنوا بهذا أنه مجنون معتوه، ولكنهم ادعوا أن له تابعا من الجن يعلمه، وعلى هذا المعنى قالوا به جنة؛ لأنهم لما وجدوا للأشياء التي يخبر بها حقيقة من الأمور الغائبة التي كان يذكرها. وقالوا على سيدنا نوح: " إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فْتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ " [المؤمنون/25] وفي قصة موسى حكاية عن فرعون حين قال: " إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ " [الشعراء/27] ... ثم قال: " إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (34) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ " [الشعراء/110/190]. فكيف يجوز أن يعني بقوله "مجنون" أنه معتوه، ثم يقول إنه لساحر عليم يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره؟ فكيف يكون المجنون ساحرا عليما؟ وكيف يخاف فرعون من مجنون أن يخرج من أرضه، ولكنه أراد بقوله مجنون، أي له رأى من الجن لأنه كان يخبرهم بأشياء تصح.

وهذا تأكيد قوي على أن الكهانة أصلها نفسي وينعتون أنفسهم بالروحانيين، ويقولون: إن النفس إذا هي زادت وكانت أكبر جزء في الإنسان اهتدت إلى استخراج البدائع والأخبار المستترات. وكانوا يقصدون بزيادة النفس في الإنسان أي إذا قويت القوى المفكرة، فإذا قوى فكر الكاهن وزادت مواد نفسه وخاطره فكر في الطارئ قبل وروده فعلم صورته.

وبناء على ذلك فإن قال قائل: فأى فرق بين هذا التنبؤ وبين إخبار الأنبياء بالغيوب؛ قيل له: الفرق بينهما واضح بين، فالأول يقوم على التجارب، وهو معرفة احتمالية - إن صح استخدام المصطلحات الحديثة- وهذا يعني أن النبوة خاصتها الصدق فلا يعترىها الكذب بحال لأنها اتصال من ذات النبي بالملأ الأعلى من غير مُشيع ولا استعانة بأجنبي، والكهانة لما احتاج صاحبها بسبب عجزه إلى الاستعانة بالتصورات الأجنبية كانت داخلية في إدراكه، والتبست بالإدراك الذي توجه إليه، فصار مختلطاً بها، وطرقه الكذب من هذه الجهة. (1) فامتنع أن تكون نبوة. وإنما قلنا إن أرفع مراتب الكهانة حالة السجع لأن معنى السجع أخف من سائر المغيبات من المرئيات والمسموعات. وتدل خفة المعنى على قرب ذلك الاتصال والإدراك، والبعد فيه عن العجز بعض الشيء.

وهنا يجوز أن يقع للكاهن اغفال في شئ من معارفه، فإن وقع في شئ من ذلك؛ لم يصب، أي أن احتمال الكذب وارد بالنسبة لتوقعات الكاهن. وبذلك يكون المتنبئ "الكاهن" هو بالضد من النبي المرسل، لأنه يلتمس الأمور التي زهد فيها النبي، وليس يخلو من ظهور ذلك عليه، وافتضاحه به، لأنه يلتمس مالا ويطلب جاهاً أو يسعى إلى لذة، ولا يخفى أمره إلا على

الأغبياء، ولا سيما إذا حاول خداعهم باصطناع التزهّد وتكلف الفضيلة، أو بما يلجأ إليهم من شعبذة وخرافات يضلل بها عقول أهل الغفلة، ومن أجل تحقيق أغراضه الدنيئة... يلجأ المتنبّي "الكاهن" إلى أحد أمرين: إما أن يعيد ألفاظاً محفوظة مسطورة في كتب الأنبياء وفي أخبارهم المتداولة، فلا يكون له فيها شرح، ولا تفسير، وإنما تكون كل أقواله أمثال وتشبيهات موافقة للحقائق مطابقة لها، وإن اختلطت ألفاظها، وضروب الإشارات فيها. وأما أن يلجأ الكاهن إلى أن يتكلف الكلام في أمور من نفسه فهو - لا محالة - يضطرب فيما يقول، ويتناقض لأن ما أورده من معان إذا كانت من عند غير الله وجد فيها اختلاف كثير. (1)

وبذلك تعتبر الكهانة من الأمور المذمومة، فعلم الكاهن مأخوذ من الجن فيأتونه بالأخبار. وكيف لنا أن نسبب إليه المعجزات وانخراق العادة التي حصلت بإعانة الشياطين ولعل الإخبار عن الغيوب حصل بإلقاء الشياطين تلك الغيوب إليهم؟! وكيف ذلك والأنبياء عليهم السلام دعوا الخلق إلى لعن الشياطين، فكيف يليق بالشياطين أن يعينوهم؟ ثم تم إثبات الجن والشياطين بأخبار الأنبياء، فلو جعلنا القول بالجن الشياطين طاعناً في النبوة، كنا قد أبطلنا الأصل بالفرع. وذلك باطل. (2) لذا نجد الكاهن دائماً فيه خبل ونقص في الخلقة، يقولون مما يلقي إليهم الشيطان من استراق السمع حين يرمي بالشهب. قال تعالى: "وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ" [الأنعام/121]، وهؤلاء الأولياء يشاركون الشياطين في خبث النفس وخبل الخلقة ونقصان العقل، وفساد الدين.

إن الكاهن يتوصل إلى التنبؤ بالغيب، بدلائل النجوم وحركات الأشخاص العلوية وتأثيرها في العالم السفلي، وقد يصدق حكمه أو يكذب بحسب قوته في أخذ الدلائل وفض رموزها ولهذه الصناعة أصول كثيرة جداً، وفروع بحسب الأصول وخطأ المخطئ ليس من ضعف أصول الصناعة، ولكن من ضعف الناظر فيها، أو أنه يروم من الصناعة أكثر مما فيها.

وأما النبي فإنه "يخبر بالعيوب" دون أن يتكلف صناعته، والكلام عنده في الجزئيات لا يختلط بالكلام في الكلّيات، لا خلط في شئ من ذلك، كأنه شهد الأمر، أي أن معرفته تتسم بأنها غير مكتسبة وواضحة لا لبس فيها، ويقينية لا مجال فيها للخطأ: ولكن أدوات الكهانة "ممكنة لكل من طلبها"، وليس كذلك علم النبي، إذا لا سبيل إليه لأحد إلا من قد خصه الله تعالى بنبوته، ثم لا سبيل أيضاً للنبي إلى معرفة ذلك في كل وقت، لكن في الوقت الذي يعلمه فيه ربه عز وجل. أن للنفس الإنسانية استعداداً للانسلاخ من البشرية إلى الروحانية التي فوقها، وأنه

(1) مسكويه، الفوز الأصغر، مصدر سابق، ص128.

(2) فخر الدين الرازي، الأربعين في أصول الدين، مصدر سابق، ص311.

يحصل من ذلك لمحة للبشر في صنف الأنبياء بما فُطروا عليه من ذلك، وتقرر أنه يحصل لهم من غير اكتساب ولا استعانة بشئ من المدارك ولا من التصورات ولا من الأفعال البدنية كلامًا أو حركة ولا بأمر من الأمور، إنما هو انسلاخ من البشرية إلى الملكية بالفطرة في لحظة أقرب من لمح البصر. (1)

وغرضنا في إيراد هذه الأشياء إبانة الفرق بين المعجزات وبين هذه التمويهات الباطلة، إذا ظهرت على أيدي الكذابين فقد قيل: وبضدها تبين الأشياء ، فنقول يظهر من هذه الحيل كلها أنها كسبية تضاف إليها من مباشرة فعل الكهانة للسحر . وتنتج أيضًا من ضم شئ إلى شئ وعمل صورة وهيئة، واختبار وقت، ورصد كوكب، وقوة وهم. وتدخين بخورات، وتعزيز كلمات وإعداد آلات. وهذه الجملة كلها من أولها إلى آخرها فعل ذلك للمدعي وحيلته وسعيه. وقد صح أن المعجزة محض فعل الله تعالى لا مدخل لقدرة العبد فيه. إنما يثبت صدق مدعي النبوة بالمعجزات: وهي أفعال الله تعالى الخارقة للعادة المستمرة وظاهرها على حسب دعوى النبوة: هو تحديه ويعجز عن الإتيان بأمثالها. (2) وأعلم أن المعجزة تبقى بعد النبي زمانًا. والسحر سريع الزوال. وأيضًا المعجزة إنما يظهرها النبي على رءوس الأشهاد، وعظماء البلاد، وأكياس الناس. والسحر إنما تروح على الصبيان، وضعفاء العقول، وأهل السواد. (3) كما أن أبواب السحر معلومة عند السحرة وعند أهل بابل (4) وهي أمور معروفة، فإذا أتى ساحر بفعل خارق تحداه ساحر آخر يتقن تلك الصنعة فيبطل سحره فينتقض بذلك ما ادعاه ويبطل. وبذلك لا يستطيع الساحر الاحتجاج بسحره. فتكون جملة المنع له وإبطال احتجاجه بوجهين: أحدهما أن ينسيه السحر جملة ويصرفه عنه؛ والآخر أن لا يفعل سبحانه عند سحره ما كان يفعله من قبل، فلا يحصل في يد الساحر غير عمل السحر وقوله من غير شئ يوجد عنده من فعل الله سبحانه ... فإن حجر المغناطيس والطلسمات [لو] كانا آيتين لنبي من الأنبياء أو آيتين فيهم فثبتت الآيات بعدهم وصار حفظة الطلسمات مُحْتَذِينَ لما أنزل الله على الرسل وجعل آية لهم، فهم بمنزلة حفظة القرآن الذي لا يكون حفظهم وتلاوتهم له آية لهم لأنهم محتذون في ذلك غير مُبْتَدئين، وبمثابة حافظ الشعر والحاكي له الذي ليس هو بمنزلة المبتدئ له؛ ولا أحد إلا وهو يفرق بين علم المُبْتَدِئ بالفعل والمُحْتَذِ عليه. وهذا ليس ببعيد أن يُقال في حجر المغناطيس والطلسمات. وهذا بين في الفرق بين صحة الاحتجاج بآيات الرسل وبين الاحتجاج بالسحر.

(1) ابن خلدون، المقدمة، ج1، مصدر سابق، ص417.

(2) الإمام الجويني، لمع الأدلة، تقديم د/ فوقية حسين، المؤسسة المصرية العامة، ط1، القاهرة، 1965م، ص110.

(3) أبو بكر الرازي، منارات السائرين، مصدر سابق، ص152.

(4) الباقلاني، كتاب البيان، مصدر سابق، ص101.

2- أجناس السحر:

فلقد اختلف العلماء في أمر السحر، فنجد إخوان الصفا اعتبروه (1) علماً مفيداً بل جعلوه حاملاً للمعارف الباطنية العظمى. فإن النفس إذا علمت موجبات أحكام النجوم والفلك، تنتبه النفس من نوم الغفلة ورقدة الجهالة، وتنبعث من موت الخطيئة، وتفتح لها عين البصيرة، وتعرف حقائق الموجودات، وتحقق أمر المعاد، فتزده في الدنيا وتهون عليها مصائبها ولا تحزن ولا تجزع ... وأدلة إخوان الصفا على صحة هذا العلم هو أفلاطون، فإن مرجعيتهم أفلاطون، لذلك يجب على السفهاء المكذابين أن يتواروا.

ويتحدث إخوان الصفا عن قوة السحر في القرآن الكريم ولا يتحدثون عن أن وصف الفاعل والفعل بالكفر، واستشهدوا ببعض الأقاويل والتي تدل على أنهم امتداد حقيقي لفكر اليهود والكهان في موضوع السحر مثل قصة عيصو بن اسحاق مع ابن النمرود، بأن ابن النمرود كان يرتدي قميصاً كلما نظرت الحيوانات إليه وقفت عمياء حتى يأتي ويأخذها، فكان كلما صارع عيصو ابن النمرود ضرب به الأرض وأخذ منه صيده، فذهب عيصو إلى أبيه إسحاق يشتكي له، فقال له أخلع عنه القميص، فهذا قميص آدم عليه السلام. (2)

وهذا الاستشهاد يبين تأثرهم بأفكار اليهود ويتضح هذا التأثير أكثر عندما يصفون السحر عند الكهنة بأن هذا السر يتكون من مجموعة من الألفاظ والحروف وكل واحد منهم أطول من سور القرآن الطوال. وإذا جمعت هذه الألفاظ حدث منها تأليفات كثيرة، وإنه يكون من جملة تلك التأليفات [علوم]، كل واحد منها يتضمن قوانين وبراهين علم من العلوم الأربعة التي أحدها الطب الذي تصح به الأجسام وتُشفى به الأسقام والآلام. والثاني علم الكيمياء الذي به يدفع الفقر ويُكشف الضر. والثالث علم النجوم وأحكامها الذي به يُطلع على ما يكون قبل أن يكون. والرابع علم الطلسمات الذي به يُلحق الرعية بطبيعة الملوك، والملوك بطبيعة الملائكة ... وهذه العلوم - من وجهة نظر إخوان الصفا - ممنوعة ولا يصح أن تكشف للجمهور من العامة، بما هي عليه من الضعف في الهمة وقلة العلم وقوة الشر بسوء لأخلاق وقبح العادات، ينهمكون في الشهوات كيف كانت، ويتناولونها من أين وجدت، ولا يراعون في ذلك رجوعاً إلى دين ومروءة ومعرفة بالواجبات والمحظورات. (3)

ولكن أي دين يتحدثون عنه إخوان الصفا الذين يجعلون القائم على علم النجوم قادر على معرفة الغيب لدرجة أنكم زعمتم بأن دجال زعم بأنه نبي وادعيتهم باطلاً بأن المأمون طلب

(1) إخوان الصفا، الرسائل، ج4، مصدر سابق، ص287.

(2) نفس المصدر السابق، ص293.

(3) نفس المصدر السابق، ص305.

منه التدليل على ذلك، فقدم الدليل، فصدق في ادعائه. وقلتم بأن الدجال كان معه خاتم ذو فصين يلبسه فلا يتغير شيء، ويلبسه غيره فيضحك، ولا يتمالك نفسه من الضحك حتى ينزعه، وهذا في عرف إخوان الصفا معجزة. وتستمترون في هذا الهراء وتقولون بأن نفس الدجال كان معه قلم شاني - وشاني ناحية بالكوفة بابل قبل ذلك - يكتب به، ويأخذه غيره فلا تنطلق إصبعة. فأعجب المأمون به وأعجب هنا تعني صدق نبوته... ولذلك وهبه المأمون ألف دينار وأثنى على علمه بعلم النجوم.(1)

بسبب هذا اللبس والهراء أنكر المعتزلة السحر إنكاراً تاماً. فإن أغلب المعتزلة أنكروا السحر وكرامات الأولياء وذلك حتى لا تختلط بالمعجزات فتفقد دلالتها على نبوة الرسول وإنما الخوارق قد تجري على أيدي الأنبياء وحدهم. والمعجز عند المعتزلة هو الفعل الذي يدل على صدق المدعي للنبوة ويعجز البشر عن الإتيان بمثله.(2) فيسأل القاضي عبد الجبار أيجوز ظهور المعجزات على غير الأنبياء؟ لا يجوز ذلك، لأنها تدل على التفرقة بين النبي ومن ليس بنبي [منجم]، لأن الرسول يقول لغيره: أنا، وأن كنت بشراً مثلكم، فكما كان المعجز يلزمكم الانقياد لي وطاعتي، فلا بد أن يختص بذلك ليصح هذا المعنى، فلهذا لا يجوز ظهوره على غير الأنبياء... لأن ما ليس من فعله لا يدل على النبوات، لأنه الباعث والدال، وما يقدر العباد على جنسه أو فعل مثله لا يكون معجزاً، لأن ما هذه سبيله يقع من العباد، فلا يدل على النبوة، وما لا يقدر عليه إلا الله تعالى ويفعله بالعادة لا يدل على النبوة، لأنه يجوز فيه أن يكون إنما حدث عند ادعائه النبوة للعادة، نحو طلوع الشمس وغروبها في أوقاتها؛ فلا بد من أن يكون فيه نقض عادة كإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص وقلب العصا حية وقلق البحر والقرآن، ولا بد أن يكون حادثاً عقيب دعواه كأن يقول لأمتة: الدليل على أنني رسوله إنني أسأله أن يظهر علماً معجزاً، فيظهره، فإذا سأل فأظهره، دل على صدقه، ولا يكون كذلك إلا وقد ادعى النبوة، كما لو صدقه تعالى كان لا يصح إلا وقد تقدم منه ادعاء النبوة.(3)

وبالتالي فإن المعجزة واقعة بقدرة الله لا بفعل النبي، وإن كانت أفعال العباد عند المعتزلة صادرة عنهم إلا أن المعجزة لا تكون من جنس أفعالهم. وليس للنبي فيها عند سائر المتكلمين إلا التحدي بها بإذن الله، وهو أن يستدل بها النبي - صلى الله عليه وسلم - قبل وقوعها على صدقه في مدعاه، فإذا وقعت تنزلت منزلة القول الصريح من الله بأنه صادق، وتكون دلالتها حينئذ على

(1) نفس المصدر السابق، ص290.

(2) جلال موسى، نشأة الأشعرية وتطورها، دار الكتب اللبناني، ط1، بيروت، 1975م، ص156.

(3) القاضي عبد الجبار، المختصر في أصول الدين، ضمن كتاب رسائل العدل والتوحيد، ج1، تحقيق د/ محمد عمارة، دار الهلال، ط1، القاهرة، ب. ت، ص237.

الصدق قطعية، فالمعجزة دالة بمجموع الخارق والتحدي، ولذلك كان التحدي جزءاً منها ... فإن النبي مجبول على أفعال الخير مصروف عن أفعال الشر فلا يلم الشر بخوارقه، والساحر على الضد فأفعاله كلها شر وفي مقاصد الشر. (1) وهذا السؤال: قد ذكره الله تعالى في القرآن، فقال في سورة الشعراء: "وَأَنَّهُ لَنَتَنَزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (192) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (193) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ" [الشعراء/192-193-194]. ثم قال بعده "وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ (210) وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ (211) إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمْعَرُوْلُونَ" [الشعراء: 210-211-212]. والتقدير: إنه لما ادعى أنه تنزيل رب العالمين، نزل به الروح الأمين على قلبه. فكان قائلاً قال: ولم لا يجوز أن يقال: إنه من تنزيل الشياطين؟ فلهذا السبب قال: "وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ" ثم إنه أجاب عنه بقوله: "هَلْ أَنْبِئُكُمْ عَلَىٰ مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ (221) تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (222) يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثُرُهُمْ كَاذِبُونَ" [الشعراء/221-222-223]. ((2)) فعن صفة، عن بعض أزواج النبي، عن النبي صلى الله عليه وسلم. قال "من أتى عرافاً فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين ليلة". (3)

إذن ما يدعيه المنجمون والسحرة من اليهود وأتباعهم قديماً وحديثاً من أن النجوم والكواكب تعقل، وأن لها التدبير، واشتغالهم لذلك بالنجوم ودلائلها، فإنما هو كفر صريح، ويخدعون الناس بمظاهر الزهد والتقشف مؤكدين أن أهل الطلسمات والسيمايات يحتاجون إلى قليل من الرياضة تُقيد النفس قوة على استئزال روحانية الأفلاك، وبذلك سعوا سعيًا حثيثاً لتقويض أعمال الأنبياء والصالحين من أهل الأديان. وزعم الجميع من المعزمين والسحرة أن لهم خواتيم وعزائم ورقية ومنادل وجراب ودخن وغير ذلك مما يستعملونه في علومهم. (4) فيقول 'إخوان الصفا هذا هو السحر الحلال المفيد' وقد كان علم السحر والطلسمات تابعاً لعلم أحكام النجوم وتالياً له ومتعلقاً به وعليه. والمنافع به كثيرة مشهورة". (5)

ولكن لم يقف علمائنا مكتوفي الأيدي، فتصدى لهم المعتزلة، ورفض ابن حزم (6) مفهوم السحر الحلال أو السحر النافع، وأكد أن الساحر يستطيع أن يغير الأعراض بالخداع والتتمويه. فأما الجواهر فاخترعها من العدم إلى الوجود فممتنع غير ممكن البتة لأحد دون الله تعالى، فمن

(1) ابن خلدون، المقدمة، ج1، مصدر سابق، ص409.

(2) فخر الدين الرازي، المطالب العالية، ج2، مصدر سابق، ص47.

(3) مسلم، الصحيح، كتاب السلام، باب تحريم الكهانة، ص1751.

(4) ابن النديم، الفهرست، ج1، مصدر سابق، ص309.

(5) إخوان الصفا، الرسائل، ج4، مصدر سابق، ص287.

(6) ابن حزم، الفصل في الملل، ج1، مصدر سابق، ص145.

ظهر عليه اختراع جسم كالماء النابع من أصابع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بحضرة الجيش فهي معجزة شاهدة من الله تعالى له بصحة نبوته لا يمكن غير ذلك أصلاً. وقبل الحديث عن أنماط وأجناس السحر وهي أدوات الكهانة، لابد لنا أن نفرق بين زهد ورياضات الصوفية التي تسعى بالصوفي أن يقبل على الله بالكلية وأن يجمع كل همهم عما سوى الله مُخلصاً في العبادة والذكر، فيكون دائماً في معية الله. يقول ذو النون المصري: "من أراد التواضع فليوجه نفسه إلى عظمة الله فإنها تذوب وتصفو، ومن نظر إلى سلطان الله ذهب سلطان نفسه لأن النفوس كلها فقيرة عند هيئته". (1) إن التصوف بذلك ليس أثراً وإلا كنا حصلنا عليه بالمشاهدة، وليس علماً وإلا كنا حصلنا عليه بالتعليم، وليس طلباً لكشف الغيب وإلا لصرنا منجمين، ولكنه خلق بمعنى التمثل بالأخلاق الإلهية بقدر الطاقة الإنسانية. فقد قال أبو الحسين النوري ليس التصوف رسماً ولا علماً، ولكنه خلق، لأنه لو كان رسماً لحصل بالمجاهدة، ولو كان علماً لحصل بالتعليم، ولكنه تخلق بأخلاق الله. ولن تستطيع أن تقبل على الأخلاق الإلهية بعلم أو رسم". (2)

فهذه رياضة يقصدون بها وجه المعبود لا لشيء سواه، وليست موجهة بغرض الاطلاع على الغيب، أما رياضات الدجالين فهي رياضة سحرية بغرض الاطلاع على المغيبات والتصرفات في العوالم ورياضة السحر كلها إنما تكون بالتوجه إلى الأفلاك والكواكب والعوالم العلوية والشرطيات بأنواع التعظيم والعبادة والخضوع والتذلل، فهي لذلك وجهة إلى غير الله وسجود له. والوجهة إلى غير الله كفر. فهذا كان السحر كفرًا. والكفر من مواده وأسبابه. ومن أدوات السحر، والطلسمات والسميات وغير ذلك... فإن السحر ينصرف في اللغة العربية على معاني كثيرة؛ فمن ذلك أن السحر في اللغة العربية هو البيان والكشف عن حقيقة الشيء وإظهاره بسرعة العمل، وإحكامه. والعرب تقول إذا أرادت السرعة في البيان وإقامة الدليل والبرهان: سحرني فلان بكلامه وذلك للذم! وإذا كشف الغطاء وأزال الشبهة يقول العلماء: أتى بسحر عظيم سحر به العقول. وبذلك يحمل السحر معنى الخداع والاستمالة والدقة. يقال سحره أي خدعه، ومنه قوله تعالى: "إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ" [الشعراء/153]، أي المخدوعين. (3) وربما يحمل معنى اللطف والدقة، فكل ما لطف - أي: خفي - مأخذه ودق سمي سحرًا. (4) وربما يكون

(1) السلمي، الطبقات، مصدر سابق، ص10.

(2) د/ أبو العلا عفيفي، التصوف الثورة الروحية، مرجع سابق، ص31.

(3) الصحاح، ج2، ص679، والمفردات للراغب، ص232.

(4) الزبيدي، تاج العروس، ج3، ص258.

بمعنى الفساد، تقول : طعام مسحور، إذا أفسد عمله، ونبت مسحور: مفسود، وأرض مسحورة: أصابها من المطر أكثر مما ينبغي فأفسدها، فهي لا تثبت.(1)

و"سحر" السنين والحاء والراء أصول ثلاثة(2) متباينة: أحدها عضو من الأعضاء، والآخر خدع وشبهة، والثالث وقت من الأوقات. فالعضو السحر، وهو ما لصق بالحقوم والمرئ من أعلى البطن ... وأما الثاني فالسحر، قال قوم: هو إخراج الباطل في صورة الحق، ويقال هو الخديعة. واحتجوا بقول القائل: " فإن تسألينا فيم نحن فإننا عسافير من هذا الأنام المسحر". كأنه أراد المخدوع، الذي خدعته الدنيا وغرته. ويقال المسحر الذي جعل له حر، ومن كان ذا سحر لم يجد بداً من مطعم ومشرب. وأما الوقت فالسحر، والسحرة، وهو قبل الصبح. وجمع السحر أسحار.(3)

وربما يكون السحر بمعنى الإخبار بما يكون قبل كونه والاستدلال بعلم النجوم وموجبات أحكام الفلك، وكذلك الزجر والفال، فإن كل ذلك إنما يُوصل إليه ويقدر عليه بعلم النجوم وموجبات الأحكام الفلكية والقضايا السماوية. ومن السحر قلب العيان وخرق العادات. ومنه ما يُعمل من الخيال والحكايات والتمثيلات، ومنه الدك "ضرب الرمل" والشعبذة. فهو بذلك معناه صرف الشئ عن حقيقته إلى غيره يقال: ما سحرك عن وجه كذا وكذا، أي ما صرفك عنه، فكأن الساحر لما أرى الباطل في صورة الحق، وخيل الشئ على غير حقيقته فقد سحر الشئ عن وجهه، أي صرفه.(4) فإن السحر في اللغة عموماً: إراءة الباطل في صورة الحق. ومنه، وقت السحر للصبح الكاذب. والسحر الرئة لأنها كاللحم وليست بلحم. (5) وبذلك نفوس السحرة لها خاصية التأثير في الأكوان واستجلاب روحانية الكواكب للتصرف فيها والتأثير بقوة نفسانية أو شيطانية أو النفوس الساحرة على مراتب ثلاثة. فأولها المؤثر بالهمة فقط من غير آلة ولا معين. وهذا الذي تسميه الفلاسفة السحر. والثاني بمعين من مزاج الأفلاك أو العناصر أو خواص الأعداد ويسمونه الطلسمات، وهو أضعف رتبة من الأول. والثالث تأثير في القوى المتخيلة يعتمد صاحب هذا التأثير إلى القوى المتخيلة فيتصرف فيها بنوع من التصرف ويلقى فيها أنواعاً من الخيالات والمحاكاة وصوراً مما يقصده من ذلك، ثم ينزلها إلى الحس من الرائين بقوة نفسه المؤثرة فيه، فينظر الراؤون كأنها في الخارج وليس هناك شئ من ذلك؛ كما يحكي عن بعضهم

(1) ابن منظور، لسان العرب، ج4، ص348، وتاج العروس، ج11، ص519.

(2) ابن منظور، لسان العرب، ج7، حرف السين، ص136.

(3) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، ج3، كتاب السين، باب السين والحاء، ص138.

(4) ينظر تهذيب اللغة، ج4، ص170، ولسان العرب، ج4، ص348 وتاج العروس للزبيدي، ج11، ص516.

(5) الرازي، منارات السائرين، مصدر سابق، ص149.

أنه يرى البساتين والأنهار والقصور وليس هناك شيء من ذلك. ويسمى هذا عند الفلاسفة الشعوذة أو الشعبة. (1)

وهناك من يرى أن أسماء السحر تعددت ولكن المعنى واحد فهناك الطلسم والشعبة، ونيرنج، ورقية، والسيمياء. لدرجة أن هناك بعض العلماء يقسم درجات السحر وأشدهم هو السحر الأسود الذي يسمى بالسيمياء وهو التصرف في الكون ومعرفة الخوارق عن طريق الحروف والأسماء المركبة، وقسموا الحروف بقسمة الطبائع إلى أربعة أصناف كما للعناصر واختصت كل طبيعة بصنف من الحروف، فتنوعت الحروف بقانون صناعي يسمونه التكسير إلى نارية وهوائية ومائية وترابية. فالألف للنار، والباء للهواء. والجيم للماء. والدال للتراب. (2) لقد كانت السيمياء قديماً يحرس محترفوها على كتمان سرها بإحاطتهم إياها بهالة من الغموض والسحر، وعمل المصريون والفينيقيون واليهود واليونان والرومان بالسيمياء، ويرد البعض أصل سيمياء إلى لفظة "شمي" ومعناها الحرق أو الأرض السوداء، ومن هنا جاءت كلمة السحر الأسود، ويرى غيرهم أن لفظة "السيمياء" قد حورت عن اللغة العبرية لللفظة "شامان" وتعني السر أو الغموض. فإن السيمياء كانت صناعة سرية. تقوم بها الكهنة والروحانيين القدماء داخل المعابد وأديرة الكهنة. (3) وبذلك تحولت السيمياء إلى صناعة وهي صناعة الذهب والفضة من غير معادنها. (4) وظهرت كتب باسم هرمس في الصناعة مثل كتاب الذهب السائل، كتاب إلى "طاطا" في الصناعة، وكتاب الأسرار، وكما قلنا هو هرمس البابلي، وإنه كان إليه بيت عطار وباسمه يسمى، فإن عطار بالغة الكلدانية هرمس، وقيل إنه انتقل إلى أرض مصر بأسباب، وإنه ملكها وكان له أولاد عدة، منهم: طاطا وصا وأشمن، وأثريب وققط. (5)

وبذلك قيل السحر شرعاً هو مزاولة النفوس الخبيثة لأقوال أو أفعال ينشأ عنها أمور خارقة للعادة. عن عائشة: قالت: قلت: يا رسول الله! إن الكهان كانوا يحدثوننا بالشئ فنجدته حقاً. قال: "تلك الكلمة الحق. يخطفها الجني فيقذفها في أذن وليه. ويزيد فيها مائة كذبة". (6) وبالتالي فإن السحر أصله التمويه بالحيل والتخايل، وهو أن يفعل الساحر أشياء ومعاني، فيخيل للمسحور أنها بخلاف ما هي به؛ كالذي يرى السراب من بعيد فيخيل إليه أنه

(1) ابن خلدون، المقدمة، ج3، ص1032.

(2) ابن خلدون، شفاء السائل، مصدر سابق، ص55.

(3) د/ فاضل الطائي، أعلام العرب في الكيمياء، مرجع سابق، ص36.

(4) ابن النديم، الفهرست، ج1، مصدر سابق، ص351.

(5) نفس المصدر السابق، ص352.

(6) مسلم، الصحيح، كتاب السلام، باب تحريم الكهانة وإتيان الكهان، ص1750.

ماء. والسحر مشتق من سَحَرْتُ الصبي إذا خدعته، وكذلك إذا علَّته ... وقوله تعالى: " إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ " [الشعراء/185] يقال: المُسَحَّر الذي خُلِقَ ذا سحر؛ ويقال من المعلنين ؛ أي ممن يأكل الطعام ويشرب الشاب. وقيل: أصله الخفاء، فإن الساحر يفعل في خفية. وقيل أصله الصرف؛ يقال: ما سحرك عن كذا، أي ما صرفك عنه؛ فالسحر مصروف عن جهته. وقيل: أصله الاستمالة؛ وكل من استمالك فقد سحرك. وقيل في قوله تعالى: " بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ " [الحجر/15] أي سُحِرْنَا فَأَزَلْنَا بالتخييل عن معرفتنا. وقال القرطبي(1): السحر الأخذ ؛ وكل ما لطف مأخذه ودق فهو سحر؛ وقد سحره يسحره سحرًا. والساحر: العالم، وسحره أيضًا بمعنى خدعه. وقال ابن مسعود: كنا نسمى السحر في الجاهلية العِضَه. والعِضَه عند العرب: شدة البهت وتمويه الكذب ... وربما يكون السحر ما يكون بخفة اليد كالشعوذة. والشعوذي: البريد لخفة سيره ...؛ ومنه ما يكون كلامًا يحفظ، ورقى من أسماء الله تعالى. وقد يكون من عهود الشياطين؛ ويكون أدوية وأدخنة.

إذن السحر من العلوم له تعريفات ومعاني كثيرة متداخلة ومتشابكة إلا أن هذه العلوم مهجورة عند الشرائع لما فيها من الضرر ولما يشترط فيها من الوجهة إلى غير الله من كوكب أو غيره كانت كتبها كالمفقودة بين الناس، لذلك حاول الساحر أن يتخفى وراء المعجزة تارة ووراء الولاية والكرامة تارة أخرى. لذلك يعرف ابن خلدون علوم السحر والطلسمات: بأنها علوم بكيفية استعدادات تقتدر النفوس البشرية بها على التأثيرات في عالم العناصر، إما بغير معين أو بمعين من الأمور السماوية: والأول هو السحر؛ والثاني هو الطلسمات.(2)

فظهرت مصطلحات مثل الشعبة: منسوب إلى رجل اسمه "شعباذة" وهو معرب وأصله خفة اليد في تقليب الأشياء. فإن الشعبة: هي خفة اليد، وخفة الأعمال؛ كالمشي على الحبال، واللعب بالمهراق. وكذلك ظهر النيرنج: أصله نيرنك فـعرب، وهو التمويه والتخييل. قالوا: إن ذلك تمزيج قوى جواهر الأرض بعضها ببعض ليحدث عنها أمر عجيب. والرقية: هي الأفسون، ومعناه آب سون فـعرب. أي رقوا على الماء فيشربه المصاب، أو يُصب عليه. وإنما سميت رقية لأنها كلمات رقية من صدر الراقي ومنه الترقوة. وتلك الكلمات بعضها فـهلوية، وبعضها نبطية، وبعضها كالهذيان. وزعموا إنما سمعت من الجن أو سمعت في المنام. وأما الحل قطيرات: وهي خطوط عقدت عليها حروف، وأشكال. أي حلق ودائرات... زعموا أن لها تأثيرات بالخاصية، وبعضها مقروء. ((3))

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج2، مصدر سابق ص44/43.

(2) ابن خلدون، المقدمة، ج3، مصدر سابق، ص1030.

(3) أبو بكر الرازي، منارات السائرين، مصدر سابق، ص151/149.

لذلك فنحن أمام السحر ومعانيه اتجاهان: الأول يراه تمويه وخيال، فيعرفه الطبري(1): بأنه تخيل الشئ إلى المرء بخلاف ما هو به في عينه وحقيقته. والاتجاه الآخر يراه أمر غريب يشبه الخارق، إذ يجري فيه التعلم، ويستعان في تحصيله بالتقرب إلى الشيطان بارتكاب القبائح قولاً كالرقى التي يقال فيها ألفاظ الشرك ، ومدح الشيطان وتسخير، وعملاً كعبادة الكواكب، والتزام الجنابة، وسائر الفسوق. لذلك فهو: عزائم ورُقَى وعُقد وكلام يتكلم به، أو يُكتب، أو يعمل شئ يؤثر في القلوب والأبدان والعقول؛ فيمرض، ويقتل ويفرق بين المرء وزوجه.

لذا اضطرب العلماء في توصيف السحر هل هو حقيقة، أم هو مجرد تخيل ؟ والسبب في ذلك أن للسحر مفهوم عام وخاص أو سحر عملي وسحر علمي، فعمل السيميائي وأصحاب الطلسمات أقرب إلى السحر العلمي فهو حقيقي، أما السحر الذي يعتمد على التأثير في القوى المتخيلة فهو أقرب إلى الخيال. فلقد ورد في القرآن العظيم لفظ "الجبت"، فسر عمر وابن عباس وأبو العالية والشعبي بالسحر، وقيل: الجبت أعم من السحر، فيصدق أيضاً على الكهانة والعرافة والتنجيم. ولما كانت المرتبتان الأوليان من السحر لها حقيقة في الخارج، والمرتبة الأخيرة الثالثة لا حقيقة لها، اختلف العلماء في السحر هل هو حقيقة أو إنما هو تخيل: فالقائلون بأن له حقيقة نظروا إلى المرتبتين الأوليين؛ والقائلون بأن لا حقيقة له نظروا إلى المرتبة الثالثة الأخيرة . فليس بينهم اختلاف في نفس الأمر، بل إنما جاء من قبل اشتباه هذه المراتب.

فذكر الغزنوي الحنفي في عيون المعاني له: أن السحر عند المعتزلة خدع لا أصل له، وعند الشافعي وسوسة وأمراض. قال: وعندنا أصله طلسم يُبنى على تأثير خصائص الكواكب؛ كتأثير الشمس في زئبق عصي فرعون، أو تعظيم الشياطين ليسهلوا له ما عَسُرُ. فكلام الغزنوي الحنفي يؤكد على أن السحر خيال على الرغم من أن مفهومه للسحر يؤكد على أنه علم وحقيقة وليس خيال. لهذا فإن الفريق الأول يرى إنه لا حقيقة للسحر، بل هو مجرد تخيل وتمويه من الساحر على من يراه، وإيهام له بما هو خلاف الواقع، وأن الساحر لا يستطيع بسحره قلب حقائق الأشياء، فلا يمكن قلب العصا حية، ولا قلب الإنسان حيواناً.

وهذا قول أبي منصور الماتريدي، وبه قال أكثر المعتزلة، وابن حزم وبعض الشافعية والأحناف. قال الماتريدي(2): "والأصل أن الكهانة محمول أكثرها على الكذب والمخادعة والسحر على التشبيه والتخيل". وبذلك يصبح السحر متى أطلق فهو اسم لكل أمر مموه باطل لا

(1) الطبري، الجامع لأحكام القرآن، ج1، مصدر سابق، ص463.

(2) الماتريدي، التوحيد، تحقيق د/ فتح الله خليف، دار النهضة المصرية، ط1، القاهرة، 1989م، ص209.

حقيقة له ولا ثبات، قال تعالى: "سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ" [الأعراف/116]، ويعني موهوا عليهم حتى ظنوا أن حبالهم وعصيتهم تسعى.

أما القول الثاني أو الفريق الثاني، فيرى أن السحر حقيقة وأثرًا ثابتًا بالكتاب والسنة، وهو قول أهل السنة والجماعة؛ وجمهور علماء الأمة وعليه أكثر الأمم. فلو لم يكن السحر موجود لم ترد النواهي عنه في الشرع والوعيد على فاعله والعقوبات الدينية والأخروية على متعاطيه والاستعاذة منه أمرًا وخبرًا. وروي من أخبار السحرة ما لا يكاد يمكن التواطؤ على الكذب فيه. فلقد شاع السحر وذاع في سابق الزمان وتكلم الناس فيه، ولم يبدُ من الصحابة ولا من التابعين إنكار لأصله. وروي سفيان عن أبي الأعور عن عكرمة عن ابن عباس قال: "عُلم السحر في قرية من قرى مصر يقال لها: "أكفر ما" فمن كذب به فهو كافر، مكذب لله ورسوله، منكر لما عُلم مشاهدة وعيانًا. (1)

المطلب الثاني: مفهوم المعجزة والكرامة.

1- تعريف المعجزة وأشرطها.

قبل الحديث عن أي شئ بخصوص المعجزة نقول بأن المعجزة واحدة معجزات الأنبياء الدالة على صدقهم صلوات الله عليهم، وسميت معجزة لأن البشر يعجزون أن الإتيان بمثلها، وشرائطها خمسة، فإن اختلف منها شرط لا تكون معجزة. فالشرط الأول من شروطها أن تكون مما لا يقدر عليها إلا الله سبحانه وتعالى. والشرط الثاني هو أن تخرق العادة. والشرط الثالث هو أن يستشهد بها مدعي الرسالة على الله عز وجل. الشرط الرابع هو أن تقع على وفق دعوى المتحدي بها المستشهد بكونها معجزة له. والشرط الخامس من شروط المعجزة ألا يأتي أحد بمثل ما أتى به المتحدي على وجه المعارضة.

واختلف العلماء في تحديد شرائط المعجزة، فمنهم من جعلها خمسة شروط وهناك من جعلها ستة شروط كالبيгдаدي (2) وهناك من جعلها سبعة شروط مثل التهانوي (3) ولكن الجميع اتفقوا على أنها فعل الله عز وجل، أو ما يجري مجرى فعله، وإن لم يكن في نفسه فعلاً. كما تكون فعلاً ناقضاً للعادة فيمن هو معجز له وحجة عليه.

والسؤال لماذا أصر معظم علماء المسلمين على إثبات المعجز لله فقط؟! حتى ينتفي الشبه بين فعل المعجز وفعل السحر الذي يتم بحيلة من الحيل وسبب من الأسباب مما يوقع

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج2، مصدر سابق، ص46.

(2) البيгдаدي، أصول الدين، مكتبة الخانجي، ط، القاهرة، 1928م، ص170/171.

(3) التهانوي، الكشف، ج1، دار صادر، ط1، بيروت، ص976.

في نفوس المكلفين من شكوك واضطراب. " يجب أن لا يكون المعجز إلا مما ينفرد الله عز وجل بالقدرة عليه دون سائر خلقه". (1)

هذا المبدأ أو القاعدة الذي يمثل شروط المعجزة، انبثقت منه كل الأفكار والحوارات حول المعجزة، حتى تعريف المعجزة لغويًا قد راعى هذه الشروط في تقديم وصف اللغة المعجزة وكذلك معظم علمائنا الأفاضل كانت معارفهم حول المعجزة تتلخص من هذه الشروط. أما القيمة الحقيقية لهذه الشروط - من وجهة نظري - أنها توضح الفرق بين السحر والمعجزة وتؤكد على أن الكرامة من جنس المعجزة. وأن الفرقان بين المعجزة والسحر كالفرقان ما بين البصراء والعلمان. فلقد قم الدليل أن الولي لا يدعي الرسالة ولا يدعي الربوبية ومن يفعل ذلك فهو كاهن من جنس اليهود المكذبين برسائل الأنبياء والرسول.

لذلك فإنني سأبدأ الحديث عن المعجزة بأشراطها، لأن الأشراط - كما قلت - هي نقطة الانطلاق تجاه الأفكار المتعلقة بالمعجزة، بل أحيانًا يصل الأمر تعريف المعجزة من خلال الأشراط، كما فعل النسفي. (2) المعجزات جمع معجزة وهي أمر يظهر بخلاف العادة على يد مدعي النبوة عند تحدي المنكرين على وجه يعجز المنكرين عن الإتيان بمثله وذلك لأنه لولا التأييد بالمعجزة لما وجب قبول قوله ولما بان الصادق في دعوى الرسالة عن الكاذب وعند ظهور المعجزة يحصل الجزم بصدقه بطريق جرى العادة بأن الله تعالى يخلق العلم بالصدق عقيب ظهور المعجزة. وبذلك فإن الإعجاز إنما هو في خرق العادة أي في إقدار الله لنبيه على فعل المعجز ومنع غير النبي عند التحدي من فعله. وبذلك يكون المعجز هو ما ينفرد الله بقدرته عليه. ووجه الإعجاز في المعجزة هو إفراد الرسول بالقدرة عليها، وخرق الله العادة بأقداره على ذلك، ورفع قدر العباد عند تحدي الرسول. فالعرب كانوا فصحاء بلغاء ولكنهم عجزوا عن تحدي الرسول لأن الله أقدره وأعجزهم. فللقطع بأن من أظهر الله المعجزة على يده تصديقًا له في دعوى الرسالة كان صادقًا فيما أتى به من الأحكام وإذا كان صادقًا يقع العلم بمضمونها قطعًا وأما أنه استدلاله فلتوقفه على الاستدلال واستحضار أنه خبر من ثبتت رسالته بالمعجزات وكل خبر هذا شأنه فهو صادق ومضمونه واقع.

ولذلك يذكر الباقلاني ت 403هـ أن إعجاز النبي للعرب في مسألة نظم القرآن يعود إلى أقداره على ما لم تقدر عليه العرب، وذلك بخلق العجز عن الاتيان بمثله في الذين تحداهم

(1) الباقلاني، البيان، مصدر سابق، ص 19/18.

(2) النسفي، العقائد النسفية، المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة، د.ت، ص 134.

الرسول بالإتيان به: " والله سبحانه لا يظهر المعجزات ولا ينقض العادات إلا للدلالة على صدق صاحبها وكشف قناعه وإيجاب الإقرار بنبوته والخضوع لطاعته والانقياد لأوامره ونواهيه". (1)

وهذا التعريف الشرعي للمعجزة يتفق مع الوصف البلاغي للمعجزة. فإن المعجز في اللغة عبارة عن جعل غيره عاجزاً مثل المقدور الذي يجعل غيره قادراً، إلا أنه صار بالعرف عبارة عما يدل على صدق من ظهر على يده، واختص به. (2) وبالتالي فإن المعجزة في اللغة مأخوذة من العجز، الذي هو نقيض القدرة، والمعجز في الحقيقة فاعل العجز في غيره، وهو الله تعالى، كما أنه هو المقدر، لأنه فاعل القدرة في غيره، وإنما قيل لأعلام الرسل عليهم السلام معجزات لظهور عجز المرسل إليهم عند معارضتهم بأمثالها، وزيدت الهاء فيها، فقيل: معجزة للمبالغة في الخبر عن عجز المرسل إليهم عن المعارضة فيها. (3) فإن عجز نقيض الحزم، عجز عن الأمر، يعجز وعجز عاجزاً، والعجز: الضعف، تقول عجزت عن كذا أعجز، والمعجزة: عدم القدرة، والتعجيز: التثبيط وذلك إذا نسبته إلى العجز ويقال: فلان يعاجز عن الحق إلى الباطل أي يلجأ إليه. (4) والمعجزة أمر خارق للعادة قصد بها اظهار صدق من ادعى أنه رسول الله تعالى وهو أي خبر الرسول "يوجب العلم الاستدلالي" أي الحاصل بالاستدلال أي النظر في الدليل وهو الذي يمكن التوصل بصحيح النظر فيه إلى العلم بمطلوب خبري وقيل قول مؤلف من قضايا يستلزم لذاته قولاً آخر.

فإن المعجزة لا تظهر على يد الكاذب، بل هي دليل صدق النبي الذي يختص بالمعجز دون غيره من البشر، فلو ظهرت على يد غيره لبطلت حجة النبي والتبس أمره. بأنه تعالى لا يخلق الخارق في يد الكاذب بحكم العادة في دعوى الرسالة ولا نقض بالفرضيات. وأيضاً اظهار الشئ فرع وجوده والحق أن السحر ليس من الخوارق وأن أطبق القوم عليه لأنه مما يترتب على أسباب كلما باشروا أحد يخلقه الله تعالى عقيبها البتة فيكون من ترتيب الأمور على أسبابها كالإسهال بعد شرب السقمونيا ألا ترى أن شفاء المريض بالدعاء خارق وبالأدوية غير خارق. فإن قلت كرامة الولي معجزة لنبيه ولا يقصد به الإظهار وإن لزم. قلت أن القوم قد عدوا الارهاصات والكرامات من المعجزات على سبيل التشبيه والتغليب لا على أنها معجزات حقيقية. (5) فإن معنى كونه خارقاً للعادة يرجع إلى أن المعتاد لا يمكن الاستدلال به على صدق النبي،

(1) الباقلاني، التمهيد، مصدر سابق، ص132.

(2) الطوسي، الاقتصاد فيما يتعلق بالاعتقاد، دار الأضواء، ط2، بيروت، 1406هـ، ص250.

(3) د/ عبد الفتاح فؤاد، الفرق الإسلامية وأصولها الإيمانية، ج1، دار الوفاء، ط1، الاسكندرية، 2003م، ص309.

(4) ابن منظور، لسان العرب، مادة [ع- ج- ز]، ص2816.

(5) التفتازاني، شرح العقائد النسفية، المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة، د. ت، ص32.

فطلوع الشمس من المشرق لم يكن دليلاً لأن العادة جرت به، أما إذا طلعت الشمس من المغرب أمكن الاستدلال به لكونه خارقاً للعادة. كما يجب أن يكون المعجز متعزراً في جنسه من حيث لا يقدر عليه غير الله تعالى. وهذا معنى أن يكون من فعل الله تعالى خاصة، أو جاريًا مجرى فعله، فهو من فعل الأجناس المخصوصة التي لا يقدر عليها غيره. فإذا أتى النبي بالمعجزات الظاهرة التي تدل على صدقه، وبيان لقومه وجه الإعجاز فيها، لزمهم ذلك تصديقه وطاعته.

إذن حقيقة المعجزة على طريق المتكلمين: ظهور أمر خلاف العادة في دار التكليف، لإظهار صدق ذي نبوة من الأنبياء. وإنما قيدنا هذا الحد بدار التكليف، لأن ما يفعله الله تعالى يوم القيامة من اعلامها على خلاف العادة، فليست بمعجزة لأحد، وإنما شرطنا في الحد خلاف العادة لأن المعتاد من الأفعال يشترك في دعواها الصادق والكاذب، وإنما اشترطنا فيه إظهاره لصدق نبي أو ولي لجواز ظهور ما يخالف العادة على مدعي الإلهية، فلا يكون دلالة على صدقه، كالذي يظهر على الدجال في آخر الزمان، وصورته كافية في الدلالة على كذبه.

إذن أغلب علماء الإسلام يؤكدون على أن المعجزة أمر خارق للعادة وهي محض فضل الله تعالى لا مدخل لقدرة العبد فيها. فإن العاقل يستيقن أن عظاماً بالية إذا اجتمعت، وتراكبت وقامت شخصاً يتكلم لا مدخل لقدرة البشر فيه، وكذلك انشقاق القمر في السماء بإشارة الإصبع حيث يراه الناس في نواحي الأرض. (1) لذلك يقول الجويني: (2) "إنما يثبت صدق مدعي النبوة بالمعجزات: وهي أفعال الله تعالى الخارقة للعادة المستمرة وظاهرها على حسب دعوى النبوة: هو تحديه ويعجز عن الإتيان بأمثالها". فإن المتصدي للمعارضة يحس من نفسه عجزاً مع استمرار عادته بمثل ذلك التحدي فيقول النبي أني رسول الله إليكم وآية صدقي أن لا يعارضني معارض في نفس دعواي هذه والنفوس متطلعة والألسن سليمة والدواعي باعثة فتتحير العقول وتتنحصر الألسن وتراجع الدواعي وتتحقق الدعاوي لست أقول لا ينكره منكر بل أقول لا يعارضه معارض بمثل التحدي والدعوى فيقول لا بل إنني رسول الله إليكم ولهذا لم نجد في قصص الأنبياء من عارضهم بمثل دعواهم في حال التحدي ولا استمرت هذه الدعوى لأحد من بعدهم ولا يلتفت إلى ما يحكى عن مسيلمة الكذاب إنه ادعى الرسالة عن الله تعالى. (3)

وكذلك الإمام الغزالي يرى لا معنى للمعجزة إلا ما يقترن بتحدي النبي عند استشهاده على صدقه على وجه يعجز الخلق عن معارضته وتحديه ... وذلك لم يكن إلا بصرف من الله تعالى والصرف عن المقدور المعتاد من أعظم المعجزات فلو قال نبي آية صدقي إنني في هذا

(1) الرازي، منارات السائرين، مصدر سابق، ص143.

(2) الجويني، لمع الأدلة، مصدر سابق، ص124.

(3) الشهرستاني، نهاية الإقدام، حرره وصححه الفريد جيوم، مكتبة الثقافة الدينية، ط2، القاهرة، 2009م، ص424.

اليوم أحرك إصبعي ولا يقدر أحد من البشر على معارضتي فلم يعارضه أحد في ذلك اليوم ثبت صدقه وكان فقد قدرتهم على الحركة مع سلامة الأعضاء من أعظم المعجزات ... والمعجزة دليل على صدقه في الخبر والنظر سبب في معرفة الصدق والعقل آلة النظر والفهم معنى الخبر والطبع مستحث على الحذر بعد فهم المحذور بالعقل فلا بد من طبع يخالفه العقوبة للدعوة ويوافقه الثواب الموعود ليكون مستحثاً ولكن لا يستحث ما لم يفهم المحذور ولم يقدره ظناً أو علماً ولا يفهم إلا بالعقل والعقل لا يفهم الترجيح بنفسه بل بسماعه من الرسول والرسول لا يرجح الفعل على الترك بنفسه بل الله هو المرجح والرسول مخبر وصدق الرسول لا يظهر بنفسه بل المعجزة والمعجزة لا تدل ما لم ينظر فيها والنظر بالعقل. (1)

فإن الإمكان الذاتي بمعنى التجويز العقلي لا ينافي حصول العلم القطعي كعلمنا بأن جبل أحد لم ينقلب ذهباً مع إمكانه في نفسه فكذا ههنا يحصل العلم بصدقه بموجب العادة لأنها أحد طرق العلم القطعي كالحس ولا يقدح في ذلك العلم احتمال كون المعجزة من غير الله أو كونها لا لغرض التصديق أو كونها لتصديق الكاذب إلى غير ذلك من الاحتمالات كما لا يقدح في العلم الضروري الحسي بحرارة النار إمكان عدم الحرارة للنار بمعنى أنه لو قدر عدمها لم يلزم منه محال. وذلك لأنه لولا التأييد بالمعجزة لما وجب قبول قوله ولما بان الصادق في دعوى الرسالة عن الكاذب وعند ظهور المعجزة يحصل الجزم بصدقه بطريق جرى العادة بأن الله تعالى يخلق العلم بالصدق عقيب ظهور المعجزة. (2)

فالمعجزة برهان قاطع على صدق المدعي بالرسالة نازلة منزلة التصديق بالقول وهو مثل حصول العلم في سائر الأشياء من شواهد المقال، وقرائن الحال. وخرق العادة على انفراده لا يكون معجزة ما لم تقتزن به القرائن من التحدي وغيره. فإن خرق العادة قد يقع بالسحر وقد يكون بالكرامة للولي ... كذلك الفعل الخارق للعادة إن كان من دعوى نبي فهو معجزة. وإن كان من غير ذلك فهو كرامة. وإن كان مع حيلة، وإعداد آلة فهو سحر. أن الله تعالى جعل المعجزات، وهي ما تكون خارقة للعادة على يد مدعي النبوة مقترنة بدعواه برهاناً قاطعاً على النبوة. وذلك الفعل يقوم مقام قول الله تعالى له: أنت رسولي على رؤوس الأشهاد. وبذلك الآلية الخارقة للعادة كما دلت بوقوعها على قدرة الفاعل وباختصاصها على إرادته وبأحكامها على علمه كذلك دلت بوقوعها مستجابة لدعاء الداعي لا لدعوى المدعي على أن له عند الله حالة

(1) الغزالي، الاقتصاد في الاعتقاد، المطبعة الأدبية، ط1، القاهرة، د.ت، ص88، 90.

(2) النسفي، العقائد النسفية، مصدر سابق، 134.

صدق ومقالة حق ومن كانت دعوته مستجابة عند الله يستحيل أن يكون في دعواه كاذباً على الله تعالى وهذا هو حقيقة النبوة. (1)

وبذلك فإن الأشاعرة من أهل السنة وكذلك الماتريدية أكدوا على أن المعجزة ممكن تقع على يد الكاذب استدراجاً. وأكد أهل السنة على أن الصادق في دعوى النبوة يجوز ظهور معجزة التصديق عليه، ولا يجوز ظهور معجزة التصديق على المتنبي في دعوى النبوة، ويجوز أن يُظهر عليه معجزة تدل على كذبه كنطق شجرة أو عضو من أعضائه بتكذيبه.

إذن المعجزة مهمة للنبي لتأكيد صدق نبوته، أما إذا ظهر انخراق العادة على الكاهن فذلك دليل على كذبه، لذلك كانت المعجزة دليل على صدق النبي وتتمثل أهميتها في ذلك، فلقد أفرد الباقلاني كتاباً مستقلاً لمعجزات الأنبياء يؤكد فيه أن المعجزة دليل فاصل بين الصادق والكاذب في ادعاء الرسالة. (2) وقد يستدل بالمعجزة على صدق من ظهرت على يده، لأنها تجرى مجرى الشهادة له. ويُستدل على صدق المخبر الذي أخبر عنه النبي صلى الله عليه وسلم، أنه لا يكذب. (3) وكذلك يُستدل بخبر من خبر عن صدقه صاحب المعجزة على صدق من أخبر عنه أنه لا يكذب. كما أن المعالي الجويني في كتابه الإرشاد، يؤكد أن الفعل الخارق للعادة (المعجزة) يستحيل كونه دليلاً دون أن يتعلق به دعوى النبي. (4)

أما عبد القاهر البغدادي في كتابه أصول الدين يقول: "النبي لا بد له من إظهار معجزة تدل على صدقه، فإذا أتى بها، وبان لقومه وجه الإعجاز فيها لزمهم تصديقه وطاعته". (5) أي لا بد للنبي من معجزة واحدة تدل على صدقه، فإذا ظهرت عليه معجزة واحدة تدل على صدقه وعجزوا علم معارضته بمثلها فقد لزمهم الحجة في وجوب تصديقه، ووجوب طاعته، فإن طالبوه بمعجزة سواها فالأمر إلى الله عز وجل: إن شاء أيده بها، وإن شاء عاقب المطالبين له بها لتركهم الإيمان بمن قد ظهرت دلالة صدقه، وهذا خلاف قول من زعم من القدرية أن النبي لا يحتاج إلى معجزة أكثر من استقامة شريعته. (6) لهذا فإن المعجز يفيد في التعارف أنه مما تعذر علينا فعل مثله أي أن المعجزة هي أمر خارق للعادة مقرونة بالتحدي تختلف عن الكرامات

(1) الشهرستاني، نهاية الاقدام، مصدر سابق، ص422.

(2) الباقلاني، كتاب البيان، مصدر سابق، ص37، ص38.

(3) الباقلاني، التمهيد، مصدر سابق، ص13.

(4) الجويني، الإرشاد، تحقيق د/ محمد يوسف موسى، دار السعادة، القاهرة، 1950م، ص278.

(5) البغدادي، أصول الدين، مصدر سابق، ص173.

(6) البغدادي، الفرق بين الفرق، مصدر سابق، ص348.

وتتميز عن السحر والشعوذة. يقول الأشعري: "المعجزة هي فعل خارق للعادة مقترن بالتحدي سليم عن المعارضة، ينتزل منزلة التصديق بالقول من حيث القرينة". (1)

إذن فرق الأشاعرة بين النبي والكاهن من خلال صدق معجزة الأنبياء وادعاء الكهنة بالسحر والدجل فيظهر انخراق العادة عندهم تأكيد على كذبهم، فيطرح الأشاعرة سؤال وهو: كيف يعلم الناس أنه رسول مرسل من ربه وليس كاهن أو دجال؟! ذهب معظم الأشاعرة وعلى رأسهم البغدادي إلى ضرورة البينة ليعلم الناس أنه نبي صادق، ومن ثم فلا بد له من معجزة ليلزم الناس تصديقه وطاعته، والمعجزة أمر خارق للعادة يتحدى بها النبي قومه عن الإتيان بمثلها، وإنما سميت معجزة لعجز الرسل إليهم عن المعارضة بمثلها، أما الخوارج وأكثر المعتزلة فقد ذهبوا إلى أن صدق النبي وحده كاف لوجوب الإيمان به دون حجة أو بينة أو معجزة، وقد ذهبت الكرامية إلى أن كل من سمع قول الرسول أو سمع الخبر عن ظهوره وعن دعوته لزمه الإقرار والتصديق به سواء علم برهانه وحجته أو لم يعلمها ، وذهب ثمانية بن الأشعرى وبعض المعتزلة إلى أنه لا يحتاج النبي في الحجة والصدق على نبوته إلى أكثر من سلامة شرعه.

وهنا الأشاعرة كانوا أحق وأمهر من سائر طوائف المسلمين، لأنهم عرفوا يقيناً أن السحر موجود وواقع ولكنه كفر وكذب، فأما السحر، فالذي نذهب إليه أن له حقيقة عندنا... فكيف يمكن أن يُقال: إن السحر باطل لا حقيقة له والله عز وجل يقول في نص كتابه: "وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكٍ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السَّحَرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرُّوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ" [البقرة/102] فهذا نص منه تعالى على أن السحر صحيح وأنه ضار للمسحور، وإن لم يضر إلا بإذن الله. ولم يرد بالإذن هاهنا الأمر بذلك والإطلاق له، لأن فعله محظور بإجماع المسلمين؛ وإنما أراد بقوله تعالى "بإذن الله" بحكمه وقضائه وما يفعله هو جل ذكره عند كلام الساحر وبخوره وكفره بما يتعلمه ويقول. ... والآثار قد توافقت بأن النبي سحر، وأن يهودياً يقال له لبيد بن الأعصم سحره، وأمر، عليه السلام، بإخراج سحره، وأن يهودية يقال لها زينب سحرته وأخرج سحرها. (2)

(1) الشهرستاني، الملل والنحل، ج1، مصدر سابق، ص102.

(2) الباقلاني، البيان، مصدر سابق، ص80.

فإن السحر حقيقة لكنه فعل منهي عنه عند الأشاعرة، وهذا لم يفهمه ابن تيمية عندما ادعى أن الأشاعرة ترى أن المعجزات هي تأييد للأنبياء عليهم السلام، وأن الله لا يظهرها على يد كاذب، على الرغم من قولهم تجويزهم عليه فعل كل شيء. وأن النبوة لا تثبت إلا بالمعجزات، وأن الرب لا يقدر على إعلام الخلق بأن هذا نبي إلا بهذا الطريق. (1)

أولاً هذا النص رغم صغره إلا إنه يحمل الكثير من التناقضات، فكيف تؤكد -ابن تيمية- بأن الأشاعرة ترد كل شيء إلى الله وفي نفس الوقت تقول أو تدعي بأن الأشاعرة تقول بأن الرب لا يقدر؟! فالحق البين أن معظم إن لم يكن الكل من الأنبياء قد ظهر عليه المعجزات، فهذا دليل قاطع على أن إثبات النبوة عرفاً ونصاً كان بالمعجزات الباهرات. وفات شيخنا الكريم أن هناك من ينكر النبوة عن طريق إنكار المعجزات، والمعجزات لا دلالة فيها البتة على صدق الأنبياء، وإذا لم يوجد شيء يدل على النبوة إلا المعجز، وثبت أن المعجز لا يدل البتة على صدق النبي، فحينئذ يلزم فساد القول بالنبوة. (2)

إلا أن شيخنا الفاضل ابن تيمية يعود مرة أخرى لينتقد الأشاعرة، فيقول: فلو قيل لهم: لا نسلم أن هذا ممكن على قولكم فإنكم إذا جوزتم عليه فعل كل شيء وإرادة كل شيء لم يكن فرق بين أن يظهرها على يد صادق أو كاذب. الحقيقة أن الأشاعرة وضحوا في أكثر من مرة لكن شيخنا ربما أغلق أذنيه، فنجد الباقلاني (3) يقول لابد لنا أن نفصل بين المعجز الظاهر على أيدي الرسل، عليهم السلام وحيل المشعوذين. فإن المعجز الظاهر على أيدي الرسل، لا يتم وقوعه وحدوثه بحيلة محتال بحال من الأحوال، وإن دقت حيلته وبُعد غوره. أن الذي نختاره نحن في معجزات الرسل أنها التي لا يصح أن يقدر عليها وعلى شيء من جنسها إلا الله عز وجل وحده. ... فإن المعجز ليس بمعجز لجنسه ونفسه ولا لحدوثها وإنما يصير معجزاً بالتحدي والاحتجاج ... ولذلك أيضاً أجزنا فعل أمثالها وما هو من جنس كثير منها على أيدي الأولياء والصالحين على وجه الكرامة ... فلو كان المعجز معجزاً لجنسه، لم يصح أن يوجد من جنسه ما ليس بمعجز. كما أن الجوهر والسواد، إذا كان جوهرًا وسوادًا لجنسهما، لم يجز أن يوجد من جنسهما ما ليس بجوهر ولا بسواد. فهذه جملة كافية في الدلالة على أن المعجز ليس بمعجز لجنسه ونفسه وحدوثه حتى يجب أن يكون معجزاً متى ثبت جنسه وحدثت نفسه في أي عصر كان وعلى كل من ظهر وفعل على يده.

(1) ابن تيمية، النبوات، دار الكتب العلمية، بيروت، 1985م، ص148.

(2) الرازي، المطالب العالنية، مصدر سابق، ص8.

(3) الباقلاني، البيان، مصدر سابق، ص52.

أيأي لقد اعتمد الأشاعرة والماتريدية على خاصية مهمة من خواص المعجزة وهي اقترانها بالتحدي، فإذا ظهرت على يد غير النبي وتحدى بها أظهر الله على يديه الكذب، فلقد اتفق مشايخ الأشاعرة والماتريدية على أنه يجوز أن يظهر فعل ناقض للعادة مثل المعجزة والكرامة على يد الكافر الذي تنقطع أسباب الشبهة عن ظهورها عليه، ولا يشك أحد في كذبه، ويكون ظهور ذلك بالفعل ناطقاً على كذبه. وهذا مثلما عمر فرعون أربعمائة سنة لم يمرض خلالها، وكان الماء يرتفع من خلفه، فعندما كان يتوقف كان الماء يتوقف، وحينما كان يسير كان الماء يسير، وأمثال هذه العلامات، ولم يشتبه أي عاقل في أنه كان كاذباً في دعوى الإلهية وكافراً.

لذا قامت البرهنة على صدق الأنبياء والرسول عند الماتريدي على أمرين: تدبر العقول لسيرتهم الحسنة - الأنبياء - وما يتسمون به من أمانة وصدق من ناحية، وما يظهر منهم من معجزات وخوارق من ناحية أخرى. يقول الماتريدي: "الأصل عندنا في إعلام الرسل وجهان: أحدهما: ظهور أحوالهم على جهة تدفع عنهم الريبة، وتأبى فيهم توهم الظنة بما صحبوهم في الصغر والكبر، فوجدتهم طاهرين أصفياء أتقياء بين أظهر قوم ... فيعلم بإحاطة أن ذلك حفظ من يعلم أنه يقيمهم مقاماً شريفاً، ويجعلهم أمناء على الغيوب والأسرار ... والثاني: مجيء الآيات الخارجة عن طبائع أهل البصر في ذلك النوع، الممتعة عن أن يطمع في مثلها، أو يبلغ بكنهها التعلم". (1)

ويشرح ذلك النسفي (2): ثم إذا ظهرت المعجزة على يدي مدعي النبوة، كانت دلالة على صدق المدعي، ووجه الدلالة: ما تقرر في عقولنا أن الله تعالى سامع دعوى هذا المدعي، وأن ما ظهر على يده خارج عن مقدور البشر بل عن مقدور جميع الخلائق ولا قدرة عليه إلا الله تعالى، فإذا ادعى الرسالة ثم قال: آية صدق دعواي أن الله تعالى أرسلني أن يفعل كذا، ففعل الله تعالى ذلك، كان ذلك من الله تعالى تصديقاً له فيما يدعي من الرسالة بما فعل من نقض العادة، فيكون ذلك كقوله له عقب دعواه هذه: "صدقت" وهذا ظاهر في المتعارف. وبذلك لا يتصور ثبوت الرسالة بلا دليل، فيكون الثبوت بالدلائل، وليست تلك الدلائل إلا المعجزات، فثبتت رسالة كل رسول بمعجزات ظهرت على يديه، فكانت معجزات موسى عليه السلام العصا واليد البيضاء وغيرهما من المعجزات، ومعجزات عيسى عليه السلام إحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص وغير ذلك، ومعجزات محمد ، صلى الله عليه وسلم، القرآن، فإن العرب بأجمعهم - مع

(1) الماتريدي، التوحيد، مصدر سابق، ص188، 189.

(2) النسفي، التمهيد في أصول الدين، مصدر سابق، ص76.

فصاحتهم- عجزوا عن الإتيان بمثله ... فعجزوا عن ذلك، فكانت المعجزات دليل صدق دعواهم الرسالة، فإن ما ظهر ليس في وسع بشر، فعلم أن الله تعالى هو المنشئ، وإنما ينشئها لتكون دليلاً على صدق دعواه، فإن قوم كل رسول سألوا منه دلائل صدقه، فدعا الله تعالى ليؤيده بإعطاء ما طلبوه منه، فلما أعطاه دليل صدقه الذي طلب منه قومه، صار ذلك دليل صدقه من الله تعالى، فإن الله لا يؤيد الكاذب. (1)

فإن المعجزة لا بد أن تكون مقرونة بالتحدي عند دعوى النبوة وظهورها من البراهين المثبتة لنبوة من ظهرت على يده لأن النبي يستند إليها في دعواه أنه مبلغ عن الله، فأصدار الله لها عند ذلك يعد تأييداً منه له في تلك الدعوى، ومن المحال على الله أن يؤيد الكاذب، فإن تأييد الكاذب تصديق له، وتصديق الكاذب كذب وهو محال على الله؛ فمتى ظهرت المعجزة وهي مما لا يقدر عليه البشر وقارن ظهورها دعوى النبوة علم بالضرورة أن الله ما أظهرها إلا تصديقاً لمن ظهرت على يده، وإن كان هذا العلم قد يقارنه الإنكار مكابرة. (2) وهذا ما جعل شيخنا ابن تيمية يخفف من نقده للأشاعرة، فيقول: لقد سلك الأشاعرة طريق آخر وهي طريقة أبي المعالي الجويني وأتباعه، وهو أن العلم بتصديقه لمن أظهر على يديه المعجز علم ضروري، وضربوا له مثلاً بالملك، وهذا صحيح إذا منعت أصولهم، فإن هذه تعلم إذا كان المعلم بصدق رسوله ممن يفعل شيئاً لحكمة، فأما من لا يفعل شيئاً لشيء، فكيف يعلم أنه خلق هذه المعجزة لتدل على صدقه لا لشيء آخر، ولم لا يجوز أن يخلقها لا لشيء على أصلهم، وقالوا أيضاً ما ذكره الأشعري المعجز علم الصدق ودليله، فيستحيل وجوده بدون الصدق فيمتنع وجوده على يد الكاذب وهذا كلام صحيح، لكن كونه علم الصدق مناقض لأصولهم فإنه إنما يكون علم الصادق إذا كان الرب منزهاً عن أن يفعل على يد الكاذب، أو علم بالإضرار أنه إنما فعله لتصديق الصادق، أو أنه لا يفعله على يد كاذب، وإذا علم بالاضطرار تنزهه عن بعض الأفعال بطل أصلهم. (3)

وهنا يتناسى ابن تيمية ركن مهم من أركان المعجزة وهو عدم المعارضة، فإن المعجزة اسم فاعل من الإعجاز وهي في الشرع أمر خارق للعادة من ترك أو فعل مقرون بالتحدي مع عدم المعارضة ... والتحدي هو طلب المعارضة في شاهد دعوا من النبوة فلا بد أن يكون الخارق موافقاً للدعوى إذ لا شهادة بدون الموافقة ... لذا خرج الارهاص والكرامة لعدم اقترانهما

(1) البزدوي، أصول الدين، دار السلام، القاهرة، 2021م، ص267.

(2) محمد عبده، رسالة التوحيد، تحقيق د/ أبو رية، دار المعارف، القاهرة، د.ت، ص83.

(3) ابن تيمية، النبوات، مصدر سابق، ص149.

بالدعوى. (1) ويلخص ذلك الرازي في التفسير الكبير، فإذا ظهر فعل خارق للعادة على الإنسان فذاك إما أن يكون مقروناً بالدعوى أو لا مع الدعوى. والقسم الأول - وهو أن يكون مع الدعوى - فتلك الدعوى إما أن تكون دعوى الألهية، أو دعوى النبوة، أو دعوى الولاية، أو دعوى السحر وطاعة الشياطين؛ فهذه أربعة أقسام: القسم الأول ادعاء الإلهية: وجوز أصحابنا خوارق العادات من غير معارضة، كما نقل أن فرعون كان يدعي الألهية، وكان يظهر على يده خوارق العادات، ونقل ذلك أيضًا في حق الدجال. قال أصحابنا: وإنما جاز ذلك لأن شكله وخلقه تدل على كذبه، وظهور الخوارق على يده لا يُفضي إلى التلبس. والقسم الثاني: ادعاء النبوة. وهذا على قسمين: لأنه إما أن يكون ذلك المدعي صادقًا أو كاذبًا، فأن كان صادقًا وجب ظهور الخوارق على يده، وهذا متفق عليه بين كل من أقر بصحة النبوة. وأما من كان كاذبًا فلا يجوز ظهور الخوارق على يده، وينقدّر أن تظهر وجب حصول المعارضة. (2) والقسم الثالث وهو ادعاء الولاية: فالقائلون بكرامات الأولياء اختلفوا في أنه يجوز ادعاء الكرامة، ثم إنها تحصل على وفق دعواه أم لا. وأما القسم الرابع وهو ادعاء السحر وطاعة الشيطان، فعند أصحابنا - الأشاعرة - يجوز ظهور خوارق العادات على يده، وعند المعتزلة لا يجوز. فالأصل عند الأشاعرة الاستدلال على التفرقة بالعلامات الظاهرة وهي: وجود المعجزة لصاحب الخير، وفي مقاصد الخير، وللنفوس المتمحضة للخير، والتحدي بها على دعوى النبوة؛ والسحر إنما يوجد لصاحب الشر وفي أفعال الشر في الغالب، من التفريق بين الزوجين وغيره. وقد يوجد لبعض الصوفية كرامات وليست معدودة من جنس السحر، وإنما هو بالإمداد الإلهي؛ لأن طريقتهم ونحلتهم من آثار النبوة وتوابعها. (3)

فإن المعجزة عند الأشاعرة هي فعل الفاعل المختار، يظهرها على يد من يريد تصديقه بمشيئته لما تعلق به مشيئته. فالأمر عن الأشاعرة هو تفسير كيفية دلالات المعجزة وليس الحكم على الفعل الإلهي بالغرض والمقصد، فلقد جرت العادة عند ظهور المعجزة يعقبها صدق المدعي، فإن اظهر المعجز على يد الكاذب وإن كان ممكنًا عقلاً، فمعلوم انتفاؤه عادة كسائر العاديات لأن من قال أنا نبي ثم نتق الجبل وأوقفه على رؤوسهم وقال إن كذبتوني وقع عليكم وإن صدقتوني انصرف عنكم، فكما هموا بتصديقه بعد عنهم وإذا هموا بتكذيبه قرب منهم علم بالضرورة أنه صادق في دعواه، والعادة قاضية بامتناع ذلك من الكاذب. (4)

(1) التهانوي، الكشف، ج3، ص975.

(2) الرازي، التفسير الكبير، ج1، دار الفكر للنشر والتوزيع، ط، بيروت، 1981م، ص85.

(3) ابن خلدون، المقدمة، ج3، مصدر سابق، ص1037.

(4) د/ جلال شرف، التصوف الإسلامي في مدرسة بغداد، مرجع سابق، ص341.

فإذا انتفى شرط اعتبار المعجزة دليل على صدق النبي، تساوت المعجزة مع السحر وعمل الشياطين وذلك غرض الخوارج والكرامية والشيعة الباطنية ولكني لا أعتبر المعتزلة منهم لأنهم لم يثبتوا خرق العادات إلا للأنبياء وبالتالي ليس الصدق شرطاً ليعقب المعجزة وإن كان في ذلك قصر نظر لأن أفعال وحيل الشياطين حقيقة موجودة أقر بها القرآن والسنة وبالتالي اشترط الأشاعرة الصدق والكذب للتمييز بين النبي والكاهن وهذا ما غفل عنه المعتزلة والسلفية الذين رفضوا اعتبار المعجزة دليل على صدق النبي، وظهر ذلك في كتاب النبوات لابن تيمية والصواعق المرسلة لابن القيم ج2، ص987، وكذلك شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز ج1، ص140.

فإن إحالة الرسول الآية أو المعجزة إلى مشيئة الله تعالى أكبر وأصدق دليل على صدق المقالة إذ لو ادعى الاستقلال بإظهار الآيات ما كان مخبراً عن الله تعالى بأمره ولا داعياً إلى الله بإذنه فهو في كل حال من الأحوال يثبت حق موكله ويظهر العجز من نفسه ويحيل الحول والقوة إلى مرسله وكان الفصل الذاتي لنفس النبي عليه السلام أن لا يكون موكولاً لنفسه طرفة عين فلا ينطق الهوى ولا يتحرك إلا على متن الهدى وذلك هو العصمة الإلهية ...

إن قرينة الصدق ملازمة لتحدي النبي الصادق عن الله تعالى وذلك أن المعجزة تنقسم إلى منع المعتقد وإلى إثبات غير المعتقد أما المنع فكالجنس من الحركات الاختيارية مع سلامة النية وإحساس التيسير والثاني في مجرى العادة ومثال ذلك تيه بني إسرائيل في قطع الطريق ومنع السحرة من التخيل وحصر زكريا من الكلام المعتقد ويجوز أن يقدر صرف الدواعي عن المعارضة بمثل ما جاء به النبي عليه السلام من جنس المعجزات وإن كان ذلك من قبيل مقدوراتهم. (1)

وهذا ما قصده أبو الحسن الأشعري من قوله بجواز انخراق العادات من كل الوجوه. وبذلك فإن مذهبه عند حصول الشرائط والخصال يجوز أن يحدث انخراق العادة، وعند عدمها يجوز أن يحدث انخراق للعادة أيضاً، فعلى هذا لا يمتنع أن يحضر عندنا جبال شاهقة، وأصوات عالية، ونحن لا نبصرها، ولا نسمعها، ولا يمتنع أيضاً أن يبصر الأعمى الذي يكون بالمشرق: بقعة بالمغرب. (2)

فكيف يتفقون على إثبات الجن والشياطين، وانتفقوا على أنهم يقدرون على الإتيان بما يعجز عنه البشر؛ ويشككون في إثبات أو خلق الله المعجز. فإذا كان الله لا يظهر المعجزات إلا

(1) الشهرستاني، نهاية الإقدام، مصدي سابق، ص423.

(2) الرازي، المطالب العالية، ج2، مصدر سابق، ص36/35.

على أيدي الصادقين (1) - وكما تقول المعتزلة - فماذا نقول على ما ظهر على يد فرعون وقارون وسحرة فرعون وغيرهم؟! أليس هذا انخراق للعادة وهم بالفعل كاذبون!

وهذا ما أصابني بخيبة أمل عندما يقول أستاذي الدكتور أحمد صبحي (2) بأن قول الكرامية من نفي ملازمة الصدق للمعجزة أسلم من قول البغدادي ومعظم الأشاعرة. ونسى أستاذي أن غرض الكرامية من ذلك نفي العصمة والعناية الإلهية عن الأنبياء، بل قرروا أنهم معصومون من كل ذنب أسقط العدالة أو أوجب حدًا، وغير معصومين من دون ذلك. بل إن بعضهم يجوز عليهم الخطأ في تبليغ الرسالة ... كما أن معجزات الأنبياء ليست مطلقًا دليلًا على صدق النبي، وإنما الدليل عليه عقلي بحث، هو دعوته إلى ما وافق العقول. (3) وبذلك كان الغلاة من الرافضة يرون أن الأئمة أفضل من الأنبياء، وكذلك فعلت الكرامية فهم أشد واطئة على الإسلام والمسلمين، فإن كان اليهود هم أصل التشبيه والتجسيم، فهم - الكرامية - عين ومخ عقيدة التشبيه.

2- الكرامة بين القبول والرفض:

(أ) تعريف الكرامة وأهميتها: الكرامة هي الأمر الخارق للعادة يُظهره الله على أيدي أوليائه. ويقال: أفعل ذلك كرامة لك: إكرامًا لك... أكرم فلانًا: أعظمه ونزهه. ونفسه عن الشائعات تنزه عنها. (4) الكرامة هي خرق للعادة على غير المألوف والطبيعي، فهي تدخل في باب المعجزات كطي المكان أي الانتقال من مكان إلى آخر يبعد عنه مئات الأميال في خطوة أو خطوات، والمشي على الماء، وكلام البهائم، وظهور الشيء في غير موضعه أي وقته - كالإتيان بفاكهة الصيف في الشتاء - وقلب الأعيان. (5)

فإن الكرامة من جنس المعجزة، والدليل على حقيقة الكرامة ما تواتر عن كثير من الصحابة ومن بعدهم بحيث لا يمكن انكاره خصوصًا الأمر المشترك وإن كانت التفاصيل آحادًا وأيضًا الكتاب ناطق بظهورها من مريم ومن صاحب سليمان عليه السلام. كرامات الأولياء حق بكتاب الله تعالى، والآثار الصحيحة المروية، وإجماع أهل السنة والجماعة على ذلك. فأما الكتاب فقوله تعالى: "كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا" [آل عمران/37]، قال أهل التفسير في ذلك: كان يرى عندها فاكهة الصيف في الشتاء، وفاكهة الشتاء في الصيف، ومريم

(1) القاضي عبد الجبار، المختصر في أصول الدين، مصدر سابق، ص240.

(2) د/ أحمد محمود صبحي، في علم الكلام، مؤسسة الثقافة الجامعية، الاسكندرية، 1978م، ص549.

(3) د/ علي سامي النشار، نشأة الفكر الفلسفي، ج1، مصدر سابق، ص667.

(4) المعجم الوجيز، مادة كرم، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، القاهرة، 1998م، ص532.

(5) د/ حسن الشرقاوي، ألفاظ الصوفية ومعانيها، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، د.ت، ص267.

رضي الله عنها لم تكن نبيه بالإجماع، فهذه الآية حجة على منكر الكرامات للأولياء. وأيضًا أحوال أصحاب الكهف وكلبهم، ونومهم وتقلبهم من جنب إلى جنب آخر، قال تعالى: "وَنَقَلْنَاهُمْ دَاتَ الْيَمِينِ وَدَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ" [الكهف/18]. وهذه كلها خرق عادات، وما كانت معجزة، فلا بد أن تكون كرامة. يقول أبو العباس السيارى: عطاؤه على نوعين: كرامة، واستدراج. فما أبقاه عليه فهو كرامة، وما أزاله عنك فهو استدراج، فقل: أنا مؤمن إن شاء الله تعالى. (1) فأفضل كرامة هنا هي الإيمان بالله وبالتالي تصديق في حق الأولياء. والولي هو العارف بالله تعالى وصفاته بحسب ما يمكن المواظب على الطاعات المجتنب عن المعاصي المعرض عن الانهماك في اللذات والشهوات وكرامته ظهور أمر خارق للعادة من قبله غير مقارن لدعوى النبوة، فما لا يكون مقرونًا بالإيمان والعمل الصالح يكون استدراجًا وما يكون مقرونًا بدعوى النبوة يكون معجزة ... ويكون ذلك أي ظهور خوارق من الأولياء. أو الولي الذي هو من آحاد الأمة معجزة للرسول الذي ظهرت هذه الكرامة لواحد من أمته لأنه يظهر بها أي بتلك الكرامة أنه ولي ولن يكون وليًا إلا وأن يكون محققًا في ديانتته وديانته الإقرار باللسان والتصديق بالقلب برسالة رسوله مع الطاعة له في أوامره ونواهيه حتى لو ادعى هذا الولي الاستقلال بنفسه وعدم المتابعة لم يكن وليًا ولم يظهر ذلك على يده. والحاصل أن الأمر الخارق للعادة فهو بالنسبة إلى النبي عليه السلام معجزة سواء ظهر ذلك من قبله أو من قبل آحاد من أمته وبالنسبة إلى الولي كرامة لخلوه عن دعوى نبوة من ظهر ذلك من قبله فالنبي لا بد من علمه بكونه نبيًا ومن قصده اظهار خوارق العادات ومن حكمه قطعًا بموجب المعجزات بخلاف الولي.

(2)

إذن كرامات الأولياء جائزة عقلاً ووارد سمعًا ومن أعظم كرامات الله تعالى على عباده تيسير أسباب الخير لهم وتيسير أسباب الشر عليهم وحيثما كان التيسير أشد وإلى الخير أقرب كانت الكرامة أوفر وما ينقل عن بعضهم من خوارق العادات وصح النقل وجب التصديق ولا يجوز الإنكار عليه أليس قد ورد في القرآن قصة عرش بلقيس وقول ذلك الولي "أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَأَاهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي" [النمل/40]، أو لم تكن قصة أم موسى ومريم أم عيسى عليهما السلام وما ظهر لهما من الخوارق من لقاء موسى في اليم كرامة لها ... فذلك وأكثر أعطى لنا يقينًا وإفادة علمية قاطعة بأن خوارق العادات قد ظهرت على أيدي أصحاب الكرامات. (3)

(1) القشيري، الرسالة، ج1، مكتبة ومطبعة محمد على صبيح، القاهرة، د.ت، ص6.

(2) النسفي، العقائد النسفية، مصدر سابق، ص140/139.

(3) الشهرستاني، نهاية الإقدام، مصدر سابق، ص497.

فالقول بجواز ظهورها على الأولياء واجب وعليه جمهور أهل المعرفة ولكثرة ما تواتر بأجناسها الأخبار والحكايات صار العلم بكونها وظهورها على الأولياء في الجملة علماً قوياً انتفى عنه الشكوك ومن توسط هذه الطائفة وتواتر عليه حكاياتهم وأخبارهم لم تبق له شبهة في ذلك على الجملة. (1) والكرامات نوعان: الكرامات الظاهرة، والكرامات الباطنة. (2) إن كرامات الأولياء ثابتة وحق عند أهل السنة الجماعة. وهي على نوعين: كرامة بين العبد والرب. من المواهب التي لا يسعه شيء. وهذه مما لا يطلع عليه أحد إلا الله تعالى، والعبد بين المحبين سر ليس يغشيه. والنوع الثاني: كرامة ظاهرة يطلع عليها الخلق. وقد تكون للأولياء أنواع من الكرامات كسماع الهواتف من الهواء والنداء من بواطنهم وتطوي لهم الأرض وقد تنقلب لهم الأعيان وقد ينكشف لهم ما في الضمير ويعلمون بعض الحوادث قبل تكونها من بركة متابعتهم رسول الله، فأوفر الناس حظاً من الصحة والقرب والعبودية حظاً من متابعتة قال تعالى: " قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ " [آل عمران/31]. وقد تكون هذه الكرامات إجابة دعوة وقد تكون إظهار طعام في أوان فاقة من غير سبب ظاهر أو حصول ماء في زمان عطش أو تسهيل قطع مسافة في مدة قريبة أو تخليصاً من عدو أو سماع خطاب من هاتف أو غير ذلك من فنون الأفعال الناقضة للعادة.

وعلى هذا تكون الكرامات نوعين: كرامات ظاهرة حسية وكرامات معنوية. (3) أما الكرامات الحسية: قد تكون طياً للأرض، ومشياً على الماء، وطيراناً في الهواء، وإطلاً على كوائن كانت وكوائن بعد لم تكن من غير طريق العادة وتكثر لطعام أو شراب، أو إتياناً بثمرة في غير إبانها وغير ذلك. أما الكرامة المعنوية: كالمعرفة بالله، والخشية له، ودوام المراقبة له، والمسارة لامتهال أمره ونهيه، والرسوخ في اليقين والقوة والتمكين، ودوام الثقة له، وصدق التوكل عليه.

إذن كرامات الأولياء " تتساوى مع المعجزة في كونها ناقضة للعادات إلا أن الكرامة ليست تحدياً لمشرك، بل على العكس يجتهد الولي في كتمانها وهي تكريم من الله لصاحب الكرامة. إن الخارق يأتي الذي ظهر بواسطته كما يكون آية لغيره. وفيها صحة وإجراء خرق

(1) القشيري، الرسالة، مصدر سابق، ص275.

(2) اسين بلاثيوس، ابن عربي، ترجمة د/ عبد الرحمن بدوي، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1965م، ص194.

(3) ابن عطاء الله السكندري، لطائف المنن، تحقيق د/ عبد الحليم محمود، دار المعارف، ط3، القاهرة، 2006م، ص66.

العادات على أيدي الأولياء. يقال: هذه معجزة لأننا نقول شروط المعجزة التحدي وهذه ليست معها تحدي فهي كرامة. (1)

وبذلك فإن أنواع الكرامات وخوارق العادات كثيرة تستغرق الظاهر والباطن، فمنها إيجاد المعدم، وإعدام الموجود، وإظهار أمر مستور، وستر أمر ظاهر، واستجابة دعاء، وقطع مسافة بعيدة في مدة قليلة، وإطلاع على أمور غائبة عن الحس، وإخبار عنها، وحضور شخص في أمكنة متعددة مختلفة في زمن واحد، وإحياء الموتى، وإماتة الأحياء، واستماع كلام الحيوانات والنباتات والجمادات من التسبيح وغيره، وإحضار الطعام والشراب في وقت الاحتياج بغير سبب ظاهر وغير ذلك من فنون الأعمال المناقضة للعادة، كالمشي على الماء، والسباحة في الهواء، وكتسير الحيوانات الوحشية، وكالقوة الظاهرة على أبدانهم.

فإذا أكد الشرع حدوث الكرامات، فكذلك يجوز العقل، فإن ظهور الكرامات على الأولياء جائز والدليل على جوازه أنه أمر موهوم حدوثه في العقل لا يؤدي حصوله إلى رفع أصل من الأصول فواجب وصفه سبحانه بالقدرة على إيجاده وإذا وجب كونه مقدوراً لله سبحانه فلا شيء يمنع جواز حصوله. وبالتالي الكرامة هي اختصاص الولي، ولا بد أن تكون هذه الكرامة فعلاً ناقضاً للعادة في أيام التكليف ظاهراً على موصوف بالولاية في معنى تصديقه في حاله. وظهور الكرامات علامة صدق إيمان من ظهرت عليه في أحواله فمن لم يكن صادقاً في إيمانه فظهور مثلها عليه لا يجوز وإن قدر وظهر فهو استدراج "من علامة المريد كثرة العمل على الصدق والإخلاص وعدم طلب العوض على عبادته من الله، فإن عبد الأجرة لا قيمة له ... لهذا فإن الله تعالى لا يعطي الكرامات لمن طلبها أو حدث بها نفسه، ولو أن القوم أحبوا أن يُعرفوا ما عُرفوا". (2)

فكما يقول الجنيد (3): ليس شيء أشد على أولياء الله من حفظ الأوقات عند الأنفاس ... والحفظ يكون بالذكر والطاعة والإخلاص والرضا. وعمارة الوقت بالأرفاق وما لا تهوي الأنفس من نزعات الشيطان، وعمارته بالذكر من مراد الرحمن. (4) ثم يراعي ظاهره بحسن آداب الشرع

(1) على وفا الشاذلي، مفاتيح الخزائن العلية، تحقيق د/ سعيد عبد الفتاح، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط1، القاهرة، 2013م، ص157.

(2) الشعراني، الأنوار القدسية، ج1، تحقيق د/ طه عبد الباقي سرور وآخرون، مكتبة المعارف، ط1، بيروت، 1988م، ص74.

(3) الجنيد، السر في أنفاس الصوفية، تقديم د/ عبد الباري داود، تحقيق د/ جودة محمد أبو اليزيد، دار جوامع الكلم، القاهرة، 1426هـ، ص142.

(4) السلمي، غلطات الصوفية، تصحيح عبد الفتاح الفاو، ضمن كتاب مجموعة آثار السلمي، مركز نشر دانشكاهي، طهران، 1388هـ، ص472.

والوقوف مع الأوامر بالمبالغة والجد والتباعد عن المناهي، ويراقب باطنه وما يرد عليه من الأحوال ساعة بعد ساعة، ويسوس باطنه بالمراقبة كما يسوس ظاهره بالمراعاة، ويرجع في طرد الغفلة والالتجاء والتضرع إلى ربه، ويشاهد في ذلك كله مراقبة الحق عليه في كل الأحوال، فإن الله تعالى يقول: "إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا" [النساء/1]. (1) إذن الكرامات ظهور أمر خارق للعادة على يد الولي مقروناً بالطاعة والعرفان، بلا دعوى نبوة، وتكون للدلالة على صدقه وفضله، أو لقوة يقين صاحبها. وهي جائزة وواقعة عند أهل السنة. كما أن الكرامة لا توجب العصمة للولي ولا تصديقه في كل أمر، وقد سئل الجنيد: أيزني العارف؟ فقال: "وَكَاَنَّ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا: [الأحزاب/38]. (2)

فإن أهل العلم اتفقوا على أن الكرامات لا تظهر على الفسقة الفجرة، بل على الموفقين البررة، وبذلك لاح أن الطريق إلى معرفة الأنبياء لا تتسد، فإن الولي ينقاد للنبي إذا ظهرت المعجزة على يديه. ويجوز ظهور خارق على يد فاسق استدراجاً وتسمى حيل. وأصبحت كلمتي حيل وكرامات تعبران عن موقفين متعارضين فأحدهما تدل على موقف عدائي، والأخرى تشير إلى صدق الصوفي وإخلاصه ومحبه لله وتولي الله له. (3) فإن قال قائل تشبه الكرامات بالسكر. فإن المشايخ العارفين والعلماء المحققون أكدوا على أن السكر يظهر على أيدي الفساق والزنادقة والكفار الذين هم على غير الالتزام بالأحكام الشرعية ومتابعة السنة وأما الأولياء فهم الذين بلغوا في متابعة السنة وأحكام الشريعة وآدابها الدرجة العليا فافترقا. لذلك يقول أبو الحسن الشاذلي: إنما هما كرامتان جامعتان محيطتان: كرامة الإيمان بمزيد الإيقان وشهود العيان وكرامة العمل على الاقتداء والمتابعة ومجانبة الدعاوي والمخادعة فمن أعطيهما ثم جعل يشتاقي إلى غيرهما فهو عبد مفتر كذاب وذو خطأ في العلم والعمل بالصواب". (4) فكل كرامة لا يصحبها الرضا من الله فصاحبها مستدرج مغرور أو ناقص أو هالك مثبور. فلك أن تعلم أن الذي أعطاه الله سبحانه لأولياءه من الإيمان واليقين مما أنت مصدق به ومثبت له أعظم مما استغربه، وأنكرته، من اطلاع على غيب أو طيران في الهواء، أو مشي على الماء. وما أكرم الله تعالى العباد في الدنيا والآخرة كرامة بمثل كرامة الإيمان به والمعرفة بربوبيته؛ لأن كل خير من خيور الدنيا والآخرة إنما هو فرع الإيمان بالله.

(1) السلمي، كتاب كلام الشافعي في التصوف، مصدر سابق، ص577.

(2) المناوي، الكوكب الدرية، ج1، تحقيق أديب الجارد، دار صادر، بيروت، ص59.

(3) د/ جلال شرف، أعلام التصوف في الإسلام، دار الجامعات، ط1، الاسكندرية، 1976م، دت، ص8.

(4) ابن عطاء السكندري، لطائف المنن، تحقيق د/ عبد الحليم محمود، مصدر سابق، ص69/67.

فإن خطر خاطر ، أو وجدت إلهاماً فاعرضهما على الكتاب والسنة، فإن وجدت فيهما تحريم ذلك، فادفعه عنك، واهجره ولا تقبله ولا تعمل به واقطع بأنه من الشيطان اللعين. (1) وبذلك تتضح حيل الكهان من كرامات الأولياء، فليس يخفى الولي الصديق والصالح الصادق من الساحر الزنديق والكاهن الفاسق بل يعرف هذا بأدنى مخالطة بل بمجرد رؤيته، فليس سيما المقربين والأبرار، كسيما الزنادقة والفجار، وهذا يعرف بالرؤية وليس الآداب كالآداب ولا البركات كالبركات ولا السكون كالسكون ولا الحركات كالحركات، وهذا يعرف بالمخالطة، فلو لبس الخبيث بكل ممكن بالظاهر فلا بد أن يرشح من باطنه ما يميز بين رشح ننته الخبيث وبين رشح طيب الطيب الفاخر، فذاك يفوح من باطنه نتن الفجور ويحرق جليسه كنافخ الكير بالنار، وهذا يفوح من باطنه مسك الطاعة ويحذي جليسه من ريحه كحامل المسك العطار.

فالكشف والكرامات للأولياء والأبدال من أفعال الله ما يُبهر العقول ويخرق العادات والرسوم، فهي على قسمين: جلال، وجمال. فالجلال والعظمة يورثان الخوف المقلق والوجل المزعج، والغلبة العظيمة على القلب بما يظهر على الجوارح ... أما مشاهدة الجمال: فهي تُخلي القلوب بالأنوار والسرور والألطف والكلام اللذيذ والحديث الأنيس، والبشارة بالمواهب الجسام والمنازل العالية، والقرب منه عز وجل مما سيؤول أمرهم إلى الله... فإن كنت في هذا الحال وهو حال الحقيقة وهي حال الولاية فخالف هواك، واتباع الأمر على قسمين: أحدهما: أن تأخذ من الدنيا القوت الذي هو حق النفس، وتترك الحظ، وتؤدي الفرض، وتشتغل بترك الذنوب ما ظهر منها وما بطن. والقسم الثاني: ما كان بأمر باطن، وهو أمر الحق - تبارك وتعالى - يأمر عبده وينهاه ... وبهذا الأمر الباطن يتحقق الولي بحال أهل الحقيقة، ثم يتحول إلى حالة حق الحق فتصير جميع حركاته وسكناته بالله عز وجل. (2) وأجل الكرامات إذن وأعظمها التلذذ بالطاعات في الخلوات، ومنها مراعاة الأنفس مع الله، ومنها حفظ الأدب معه في تلقي الواردات في الأوقات، ومنها الرضى عن الله في جميع الحالات، ومنها البشرى لهم من الله بالسعادة الأبدية في الدار الآخرة. فإن الولي من يوالي الله بالطاعات. (3) ولهذا فإن الكرامات لا دخل للعبد فيها وإنما هي فعل الله تعالى كالمعجزات لا دخل للرسول فيها، وفوق كل ذلك فأعظم الكرامة: التوفيق للعمل على منهاج الكتاب والسنة. (4)

(1) الجيلاني، فتوح الغيب، مع تعليقات ابن تيمية، تحقيق د/ عبد العليم محمد الدرويش، دار الهادي، القاهرة، د.ت، ص98.

(2) نفس المصدر السابق، ص100.

(3) ابن تيمية، الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، مصدر سابق، ص35.

(4) الشعراني، نتيجة العلوم، مصدر سابق، ص62.

الفروق واضحة لمن له قلب وعقل بين السحر والكرامة، فواعجباً كيف ينسب السحر وفعل الشياطين إلى الأولياء المقربين والأبرار الصالحين المتطهرين من الصفات المذمومة المتحلين بالصفات المحمودة المعرضين عن كل شئ يشغلهم عن ربهم؟! فقد يجوز ظهور خرق العادة والمألوف لدى بعض أعداء الله، وذلك بقصد الاستدراج لهم للوقوع في الهلاك والسقوط في براثن الشرك، وخرق العادة بالنسبة لهم تولد عندهم الغرور والكبرياء والتعظيم والتعجب، ويعتقدون كذباً أنهم منحوا هذه الكرامات لأنهم يستحقونها بأعمالهم، ويرون أن لهم الفضل على الخلق بها، مما يزيد في عذابهم في الدنيا والآخرة ... أما الأولياء فإذا ظهرت لهم كرامة من الكرامات ازدادوا لله تضرعاً وتذلاً، وخشية واستكانة بل وازدراءً لأنفسهم، وتكون الكرامة بالنسبة لهم قوة تزيد من مجاهدتهم ونعمة تزيد من شكرهم، وفضلاً من الله على ما أعاطهم من نعم. فيقول الجنيد لذلك الكرامة سر، ولا يجوز لصاحب الكرامة الإفصاح، لأن الكرامة بداية حجاب ومكر، فمن نظر إلى الكرامة فقد كفر بصاحب الكرامة: " الخوف من المكر فرض دائم إلى الأبد وما أمن من المنكر إلا هالك... المكر طلب الشئ والسكون إلى غيره [فإن] الهمة لسان السر، ومن ليس له نطق السر يعجز عن الظاهر، لأن كلام السر مع الرب من الربوبية". (1) إذن الوصول هو بكثرة الاجتهاد واتباعهم للسنة حتى بلغوا فيها الدرجة العليا فافترقا، ثم إن كثيراً من المنكرين لو رأوا أحدًا من الأولياء والصالحين يطير في الهواء لقالوا هذا سحر واستخدامات للجن والشياطين، ولا شك أن من حرم التوفيق كذب بالحق عياناً وحساً فكيف حال هذا في تصديقه بالمغيبات التي أمر الله تعالى بالإيمان بها فربما زلت به القدم فخرس الدارين لأنه إذا أنكر المحسوسات فبالحقيق إنكاره المغيبات ... وقد كان الإمام الشافعي يقول الإنكار فرع النفاق. (2) فهذا أبو العباس بن عطاء الأدمي كان يقول من تأدب بآداب الصالحين صلح لبساط الكرامة، ومن تأدب بآداب الأولياء صلح لبساط القربة، ومن تأدب بآداب الصديقين صلح لبساط المشاهدة. ومن تأدب بآداب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام صلح لبساط الأئس والانبساط.

اعلم أن اطلاع أولياء الله على بعض الغيوب لا يحيله العقل وقد ورد به النقل. (3) فإن ظهور الكرامات على الأولياء جائز عقلاً وواقع نقلاً أما جوازه عقلاً فإنه ليس بمستحيل في قدرة الله عز وجل بل هو من قبيل الممكنات كظهور معجزات الأنبياء. (4) فإن ظهور الكرامة من الأولياء من الممكنات؛ لأنه لو لم يكن من الممكنات، فإما أن يكون من الواجبات، وأما أن يكون

(1) الجنيد، السر في أنفاس الصوفية، مصدرة سابق، ص29.

(2) الشعراني، الطبقات الكبرى، ج1، تحقيق د/ أحمد عبد الرحيم السايح، مصدر سابق، ص30، 173.

(3) ابن عطاء السكندري، لطائف المنن، مصدر سابق، ص67.

(4) اليافعي، روض الرياحين، تحقيق د/ محمد عزت، المكتبة التوفيقية، القاهرة، دت، ص28.

من المستحيلات، وباطل أن يكون من المستحيلات فإن المستحيل هو الذي لو قدر وجوده لزم منه محال عقلي، ولا يلزم من تقدير وجود الكرامات مجال عقلي، وباطل أن يكون جريان الكرامات على الأولياء وجوباً إذا الطائفة مجمعة على أنه قد يكون الولي ولياً وإن لم تخرق العادة له. فتعين أن يكون من الجائزات، وكل شيء كان من الجائزات لا يحيله العقل، وكل ما لا يحيله العقل ولم يرد بعدم وقوعه نقل فجائز أن يكرم الله به أولياءه. (1) وأهل الحق أقرّوا بالكرامة لما اشتهر من الأخبار واستفاض من الحكايات عن الأخيار ... وظهور الكرامة على طريق نقض العادة للولي جائز غير ممتنع ... فلا يجحد الكرامة إلا من كفر بالقرآن وبالنبي محمد عليه السلام، بل كل كرامة للولي تكون معجزة للرسول، فإن بظهورها يعلم أنه ولي، ولن يكون ولياً إلا أن يكون محققاً في ديانته؛ إذ المعتقد ديناً باطلاً عدو لله تعالى لا وليه، وكونه محققاً في ديانته وديانته الإقرار برسالة رسوله وأتباعه إياه في دينه دليل صحة رسالة رسوله، فمن جعل ما هو معجزة للرسول ودلالة صدقه مبطلاً للمعجزة وساداً لطريق الوصول إلى معرفتها فقد وقع في غلط فاحش وخطأ بين. (2)

وهذا ما دفع شيخنا الفاضل محمد عبده للقول بأن مجرد الجواز العقلي وأن صدور خارق للعادة على يد غير نبي مما تتناوله القدرة الإلهية، فلا أظن أنه موضع نزاع يختلف عليه العقلاء، وإنما الذي يجب الالتفات إليه هو أن أهل السنة وغيرهم في اتفاق على أنه لا يجب الاعتقاد بوقوع كرامة معينة على يد ولي لله معين بعد ظهور الإسلام، فيجوز لكل مسلم بإجماع الأمة أن ينكر صدور أي كرامة كانت من أي ولي كان، ولا يكون إنكاره هذا مخالفاً لشيء من أصول الدين ولا مائلاً عن سنة صحيحة ولا منحرفاً عن الصراط المستقيم. (3)

وكان قول الإمام محمد عبده ناتج عن المظاهر البدعية في العقيدة والسلوك، استقر في أذهان الأكثرين من المسلمين، أن للأولياء كرامات واجبة لهم وأنه محال أن يكون الإنسان ولياً، بغير صدور مثل هذه الأمور منه. وترتب على هذا الاعتقاد مبالغة أتباع الصوفية في تقدير مكانة أوليائهم في حياتهم وبعد مماتهم، بل أن كثيراً من الأتباع ينسبون أحياناً لشيخوخهم من الكرامات، ما هم في غير حاجة لها. وما ذلك إلا لحسن استقامتهم وطاعتهم لله على مقتضى الأمر والنهي الشرعيين. ومن أجل ذلك حذر كبار شيوخ الصوفية من عقيدة الجزم بالكرامة والجنة، لغير من نص عليهم المعصوم - صلى الله عليه وسلم -، بل لا ينبغي لمسلم قط أن

(1) ابن عطا الله، لطائف المنن، مصدر سابق، ص66.

(2) النسفي، التمهيد في أصول الدين، مصدر سابق، ص82، ص83.

(3) الأمام محمد عبده، رسالة التوحيد، مصدر سابق، ص178.

يجزم بالكرامة لأحد وإن كان عظيمًا. (1) أين هذا الأصل المجمع عليه مما يهذي به جمهور المسلمين في هذه الأيام، حيث يظنون أن الكرامات وخوارق العادات، أصبحت من ضروب الصناعات، يتنافس فيها الأولياء، ويتفاخرون فيها، همم الأصفياء وهو مما يتبرأ منه الله ودينه وأوليائه وأهل العلم أجمعون.

ولكن السؤال هنا ما ذنب الولي؟! فالولي يحاول دائمًا بل يجتهد في إخفاء حاله وكرامته وإن ظهرت فهي من باب النصيحة للخلق. (2) فإن بعض الأولياء يقولون بأن إظهار الكرامة وإخفاؤها على حسب النظر لأصلها وفرعها؛ فمن عبر من بساط إحسانه أصمته الإساءة مع ربه ومن عبر من بساط إحسان الله إليه لم يصمت إذا أساء ... فقد صح إظهار الكرامة من قوم وثبت العمل في إخفاؤها من آخرين. (3) الولي صادق في ستر حاله أبدًا، والكون كله ناطق عن ولايته، والمدعي ناطق به، والكون كله ينكر عليه. (4) فيقول أبو عمرو الدمشقي ت 320هـ: " كما فرض الله على الأنبياء إظهار الآيات والمعجزات "ليؤمنوا بها" كذلك فرض على الأولياء كتمان الكرامات، حتى لا يفتتن الخلق بها".

إن الأتباع الذين أرادوا إظهار كرامات الأولياء هم أصحاب الذنب، وكان ذلك لأغراض منها تحويل ذلك إلى مهنة والغرض الأخطر هو نشر أفكار اليهود مرة أخرى التي تدعو إلى التشبيه والتجسيم والحلول وإحداث فوضى دينية وأخلاقية. فإن هؤلاء الأتباع شيعة باطنية غلاة يظهرون مرة أخرى بلباس وشخصيات مختلفة أليست البابية والبهائية والقادينية هي صور حديثة لليهود في عبادة الشيعة الباطنية!. فإن مؤسس البابية ينسب إلى مدينة شيراز، وقد أضفى الباب على نفسه صفة الألوهية وأنه مشخص للولي، بل ادعى النبوة. والقاديانية تنسب إلى قاديان وهي مدينة تبعد ستين ميلاً من لاهور. (5) وادعاء البهائية أن الأنبياء والرسول مظاهر الأسماء الإلهية، وفي ذلك ما يقربهم من مذهب وحدة الوجود.

هل يصح لنا أن ننكر الكرامات بسبب فساد ما يدعون بأنهم أتباع؟! وفضلاً عن هذا كله، فكبار الصوفية من شيوخ الطرق الصوفية لا يسعون للكرامة سعيًا، وإنما يسعون إلى تحقيق كمال عبادتهم واستقامتهم في كل أحوالهم مع الله باطنًا وظاهرًا. فإن السلف الصالح لا ينكر كرامات أولياء الله. ولكن نخشى أن يرتبط في أذهان عامة الناس حدوث مثل هذه الأمور من كل

(1) د/ أحمد الجزار، ابن باديس والتصوف، منشأة المعارف، ط1، الاسكندرية، 1999م، ص115.

(2) الرازي، منارات السائرين، مصدر سابق، ص145.

(3) المناوي، الكواكب الدرية، مصدر سابق، ص19.

(4) السلمي، طبقات الصوفية، مصدر سابق ص277/282.

(5) أبو زهرة، تاريخ المذاهب، ج1، ص250/252.

المنتسبين للصوفية، ومن ثم ينصرفون إليهم على اعتقاد لأن كل أمورهم ستكون مجابة بفضل كراماتهم، وبالتالي يركنون إلى البطالة والكسل.

ب- المنكرون للكرامة ، أسبابهم والرد عليهم:

والناس في إنكار الكرامات مختلفون فمنهم من ينكر كرامات الأولياء مطلقاً وهؤلاء أهل مذهب معروف عن التوفيق مصروف. ومنهم من يكذب بكرامات أولياء زمانه ويصدق بكرامات الأولياء الذين ليسوا في زمانه كمعروف وسهل والجنيد فهؤلاء يراهم أبو الحسن الشاذلي مثل اليهود الذين صدقوا بموسى وكذبوا بمحمد صلى الله عليه وسلم - لأنهم أدركوا زمانه. ومنهم من يصدق بأن الله تعالى أولياء لهم كرامات ولكن لا يصدق بأحد معين من أهل زمانه فهؤلاء محرومون أيضاً لأن من لم يسلم لواحد معين لم ينتفع بأحد ... ولا شك أن من حرم التوفيق فكذب بالحق غيباً وحدثاً كذب به عياناً وحساً كما قال الله تعالى وهو أصدق القائلين: "وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ" [الأنعام/7]. (1) أن مدد الأولياء "الكرامات" من الحقيقة المحمدية، وأن الأولياء إنما هم مظاهر أنوار النبوة ومطالع شوارقها ... وأنوار الولاية دائمة الثبوت للزوم دوام أنوار النبوة. يقول الجنيد: التصديق بعلمنا هذا ولاية. (2) فمن لم يصدق بهذه الكرامات فقد كفر؛ أي قد غطى عليه الأمر؛ وستر عنه شهود قدرة الله تعالى.

اعلم أن الأنوار الظاهرة في أولياء الله إنما هي من إشراق أنوار النبوة عليهم، فمثل الحقيقة المحمدية كالشمس، وقلوب الأولياء كالأقمار، وإنما أضاء القمر لظهور نور الشمس فيه ومقابلته إياها، فإذا الشمس منيرة نهاراً، ومضيئة أيضاً ليلاً، لظهور نورها في القمر الممدود منها، فإذا هي لا غروب لها فقد فهمت من هذا أنه يجب دوام أنوار الأولياء لدوام ظهور نور رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيهم، فالأولياء آيات الله يتلوها على عباده بإظهاره إياهم واحداً بعد واحد: "تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ" [الجاثية/6].

فلقد عهدنا إثبات الكرامات عند الأشاعرة، ما عدا أبو إسحاق الإسفراييني أنكر وقوع الكرامات. وعهدنا أيضاً إثبات الكرامات عند الماتريدية، لدرجة أن النسفي يكفر من ينفي وقوع الكرامات. (3) وبذلك خالف الماتريدية المعتزلة، فكما أنهم أثبتوا المعجزات للأنبياء، فإنهم أثبتوا أيضاً الكرامات للأولياء. (4) ثبتت الكرامة إذاً بما مرَّ فجهل المعتزلة بما فيها من الحكمة لا

(1) اليافعي، روض الرياحين، مصدر سابق، ص32/33.

(2) ابن عطاء الله السكندري، لطائف المنن، مصدر سابق، ص6125.

(3) النسفي، التمهيد في أصول الدين، مصدر سابق، ص83.

(4) د/ عبد الفتاح فؤاد، الفرق الإسلامية وأصولها الإيمانية، ج1، مصدر سابق، ص83.

يجوب امتناع وجودها، ثم فيها فائدة ثبوت رسالة من آمن به الولي، وصيرورة الولي كمن عاين من أهل عصر النبي معجزته، وتصير أيضًا مبعثة له على الاجتهاد في العبادات والاحتراز عن السيئات إبقاء لتلك المرتبة العلية والدرجة الشريفة على نفسه، وحفظًا لتلك المرتبة عن التبذل والزوال، ويصير تحريضًا لمن أطلعه الله تعالى عليها من الصالحين على الجد والاجتهاد. (1)

فلم يقتصر الأمر على الإثبات فقط عند الماتريدية، بل قدموا مبررات لأهميتها، فهي تجديد لدوافع المسلم ليقين الاعتقاد. فالكرامة هنا دافعة لزلزلة الشك في المنة، ومعرفة بفضل الله فيمن أظهرت عليه، وشاهدة له بالاستقامة مع الله سبحانه .. فالكرامة تعريف اليقين من الله تعالى بالعلم والقدرة والإرادة والصفات الأزلية، بجمع لا يفترق، وأمر لا يتعدد كأنها صفة واحدة قائمة بذات الواحد. أيسوي من تعرف الله إليه بنوره بمن تعرف إلى الله بعقله! ... فإن الكرامة من الأمور التي تسهل عليك الإيمان، فلا تستكثرها على الأولياء، فإن قدرة الله التي لا يكبر عليها شيء هي التي أظهرت الكرامة. في هذا الولي فلا تنتظر إلى ضعف العبد ولكن انظر إلى قدرة السيد؛ فجدد الكرامة للولي جدد لقدرة القدير؛ وعمي منك من شهود عظمة وصفه سبحانه وتعالى ... كما أن ظهور الكرامة دليل شهادة بصحة طريق هذا الولي الذي أظهرت عليه الكرامة ويكون ذلك لتنبية للغافلين، فيكون جاحدًا فيرجع إلى الاعتراف. أو كافرًا فيعود إلى الإيمان، أو شاكًا في خصوصية ذلك العبد فأظهرت عليه ليعرفك الله بما فيه من ودائع الإحسان. (2)

إن من ينكر كرامات أولياء الله فالدلائل النقلية والعقلية ترد عليه، ويخش على من هذا مذهبه من سوء الخاتمة. فالإنكار - للأسف - هو الخذلان من الله لمن أنكر كرامات أولياء الله أصلًا. فقد أخذ عالم السلف ابن تيمية على ابن حزم نفيه لخرق العادات ونحوه من عبادات القلوب. (3) إن إظهار المعجزات عند ابن حزم هو أهم سمة يتميز بها الأنبياء عن سائر البشر، ومن أجل ذلك أنكر ظهور المعجزات على الأولياء على سبيل الكرامة. "قالذي يأتي به الأنبياء عليهم السلام هو إحالة الذاتيات ...، إذ ثباتها لا يكون إلا لنبي". (4) وبذلك يعلن ابن حزم إحالة هذا الخرق، إلا للأنبياء فقد اختص الأنبياء بالمعجزات الدالة على صدقهم، وهذه المعجزات هي المفرقة بين دعوى المدعين، وبين الأنبياء، فلو جاز أن يأتي بهذا الأمر أحد سواهم، لما كان فيه دليل على صدقهم.

-
- (1) النسفي، التمهيد في أصول الدين، مصدر سابقة ص83.
 - (2) ابن عطاء السكندري، لطائف المنن، مصدر سابق، ص73.
 - (3) ابن تيمية، الرد على المنطقيين، مصدر سابق، ص18/17.
 - (4) ابن حزم، الفصل في الملل والنحل، ج1، مصدر سابق، ص146.

ومن أهل الظاهر الذين يرفضون أن يكون للأولياء كرامات، إلى المعتزلة الرافضين أيضاً والغريب والعجيب أن يتوافق معهم ابن حزم ليس فقط على الرفض، بل على أسباب الرفض نفسها. فقد علمنا أن المعتزلة تنكر وقوع الكرامات، ما عدا أبا الحسن البصري فقال بجواز وقوعها. ولما استدل المنكرون لكرامة الأولياء بأنه لو جاز ظهور خوارق العادات من الأولياء لاشتبه بالمعجزة فلم يتميز النبي من غير النبي.(1)

ويستأل المعتزلة أيجوز ظهور المعجزات على يد غير الأنبياء، على ما يقول الكثير من العوام، أنها قد تظهر كرامة على الصالحين، وكما يقول بعضهم أنها تظهر على الصادقين؟! الحقيقة تؤكد قول المعتزلة(2) أنه لا يجوز ذلك، لأنها تدل على التفرقة بين النبي ومن ليس بنبي، لأن الرسول يقول لغيره " أنا، وإن كنت بشراً مثلكم، فكما كان المعجز يلزمكم الانقياد لي وطاعتي، فلا بد أن يختص بذلك ليصح هذا المعنى، فلهذا لا يجوز ظهوره على غير الأنبياء ولو ظهرت على غيرهم - الأنبياء - لزهت في النظر في معجزات الأنبياء ونفر عن ذلك.

فإن القول بأن المعجز ظهر على كثير من الصالحين، قول مردود - من وجهة نظر المعتزلة-، وأخبار لا نصدق بها، لأنهم ربما خبروا عن من ينكر ذلك لنفسه، وربما خبروا بالتحال من هذا الباب، نحو إخبارهم عن بعضهم أنه وجد في وقت واحد في بلدين، إلى غير ذلك مما تنافيه العقول. وهنا يتغافل المعتزلة عن رواية القرآن لأحداث الكرامات على يد من هم ليسوا أنبياء وأن الخبر من القرآن وليس نقلاً عن السنة الأولياء أو أتباعهم. وأما وقوع الكرامات نقلاً فقد جاء في القرآن وفي الأخبار والآثار بالإسناد ما يخرج عن الحصر والتعداد. فمن ذلك في القرآن ما أخبر الله تعالى عن مريم بنت عمران في قوله عز وجل: "كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ" [آل عمران/37] وكذلك ما أخبر الله عز وجل من العجائب على يد الخضر عليه السلام مع موسى وكذلك قصة ذي القرنين وقصة أهل الكهف.

إذن الظاهرية يرفضون أن يكون للأولياء كرامات، فلا تجوز هذه الكرامات لغير الأنبياء عليهم السلام، لأن الأنبياء مخصوصون بذلك، والآيات والمعجزات والكرامات واحدة، وإنما سميت معجزات لإعجاز الخلق عن الإتيان بمثلها، فمن أثبت من ذلك شيئاً لغير الأنبياء عليهم السلام، فقد ساوى بينهم، ولم يفرق بين الأنبياء وبينهم. (3)

(1) النسفي، العقائد النسفية، مصدر سابق، ص140.

(2) القاضي عبد الجبار، المختصر في أصول الدين، مصدر سابق، ص237.

(3) الطوسي، اللمع، مصدر سابق، ص273.

وكذلك وافقهم أبو إسحق الإسفرايني في إنكار الكرامات مدعيًا نفس حجتهم في الرفض بأن المعجزات دلالات صدق الأنبياء ودليل النبوة لا يوجد مع غير النبي كما أن العقل المحكم لما كان دليلًا للعالم في كونه عالمًا لم يوجد إلا ممن يكون عالمًا وكان يقول الأولياء لهم كرامات شبه إجابة الدعاء فأما جنس ما هو معجزة للأنبياء فلا. (1) إذن احتج المنكرون على عدة أمور: الأول: أنها توجب التباس النبي بغيره لعدم تمييزها عن المعجزة، فلا تدل المعجزة عن النبوة. الثاني: أن ظهورها يوجب نقض العادة؛ لتكثرها بتكثر الأولياء، فيخرج عن كونه خارقًا فيصير عادة. الثالث: أنها تسد باب إثبات النبوة لاحتمال كون المعجز إكرامًا لا تصديقًا، فيطوى بساط النبوة رأسًا. الرابع: أنها لا تتميز عن السحر. (2)

وقام الطوسي في كتابه "اللمع" مخصصًا بابًا أو فصلًا يتحدث فيه عن كرامات الأولياء، وقام الأشاعرة بتفنيد هذه الحجج والرد عليه وكذلك الياضي في روض الرياحين والعديد والعديد والقائمة تطول!. إلا أنني أبدأ بالادعاء الرابع وهو التباس الكرامة بالسحر لذلك فهي مرفوضة، فقولنا ونقول بأن الكرامة للمتقين المخلصين، فيقول التستري: جعل الكرامات كلها للمتقين من عباده ثم وصفهم: "لَا يَسْقُوتُهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ" [الأنبياء/27] أي: لا اختيار لهم مع اختياره "وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ" اتباع السنة في الظاهر، ومراقبة الله في الباطن. (3) هل يفعل ذلك الساحر حتى يلتمس فعله بالكرامة؟!

وأيضًا عبر عن ذلك الإمام أبو بكر بن فورك فكان يقول المعجزات دلالات الصدق ثم إن ادعى صاحبها النبوة فالمعجزات تدل على صدقه في مقالته وإن أشار صاحبها إلى الولاية دلت على صدقه في حاله فتسمى كرامة ولا تسمى معجزة وإن كانت من جنس المعجزات ... وكان رحمه الله يؤكد على الفرق بين المعجزات والكرامات أن الأنبياء عليهم السلام مأمورون بإظهارها والولي يجب عليه سترها وإخفاؤها والنبي - صلى الله عليه وسلم - يدعي ذلك ويقطع القول به والولي لا يدعيها ولا يقطع بكرامته لجواز أن يكون ذلك مكرًا. (4) ويكون من قبيل قوله تعالى: "سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ" [الأعراف/182]، فقد يقع هذا له بالسحر أو بإعانة الشياطين، لهذا قال الأولياء: إذا رأيت الرجل يطير في الهواء ويمشي على الماء فلا تقروا له بولاية أو كرامة حتى تعرضوا أعماله وحاله على الكتاب والسنة.

(1) القشيري، الرسالة، مصدر سابق، ص274.

(2) المناوي، الكواكب الدرية، مصدر سابق، ص7.

(3) السلمي، حقائق التفسير، ج2، مصدر سابق، ص6.

(4) القشيري، الرسالة، مصدر سابق، ص274.

إذن الكرامة: فعل خارق للعادة يقع على يد الولي بشرط عدم التحدي به. وإنما تكون الكرامة في الأصل إكرامًا لمتبوع هذا الولي، ودلالة على صدق نبوة من اتبعه، وشهودًا بصحة متبوعيته له، وتثبيتًا للولي على الطاعة، وإرشادًا للخلق إلى الدخول في الطاعة. إذ كيف يؤدي ذلك إلى التباس الكرامة بالمعجزة والمعجزة تظهر على إثر الدعوى، والولي لو ادعى الرسالة لكفر من ساعته وصار عدوًا لله تعالى، ولا يتصور بعد ذلك ظهور الكرامة على يده، وكذا صاحب المعجزة لا يكتفم معجزته بل يظهرها، وصاحب الكرامة يجتهد في كتمانها ويخاف أنها من قبيل الاستدراج له دون المعجزة، ويخاف الاغترار لدى الاشتهار. (1) إذن احتج المنكرون بأن ذلك يوقع الشبهة في المعجزات فليس بصحيح لأن المعجزات إنما تظهر مقرونة بدعوى الرسالة والتبليغ عن الله تعالى ولا بد أن تكتنفها حوادث تميزها عما سواها. (2)

وبذلك فإن كل جاز للأنبياء من المعجزات جاز للأولياء مثله من الكرامات بشرط عدم التحدي. (3) فلا يصح قول من يقول بالالتباس بين الكرامات والمعجزات لأن المعجزة يجب على النبي أن يتحدى بها ويظهرها والكرامة يجب على الولي أن يخفيها ويسرها إلا عند الضرورة أو إذن أو حال غالب لا يكون له فيه اختيار أو لتقوية يقين بعض المريدين. فإن ما ذهب إليه الإمام أبو إسحق الإسفراييني رحمه الله من إثبات بعض الكرامات دون بعض فهو مخالف لمذهب الجمهور الصحيح.

فإن الولي في كل الأحوال والتي عدها الجيلاني (4) ثلاثة أحوال في الالتزام بالأمر والنهي: حال صاحب التقوى، وحال الحقيقة، وحال حق الحق. ولا بد للعبد في كل حال من الأحوال أن يريد فعل ما أمر به في الشرع، وترك ما نهي عنه في الشرع، فكيف من يكون هذا حاله ساحرًا أو مدعي النبوة!! فأغلب الأشاعرة تصدوا للمعتزلة الذين أنكروا الكرامات؛ لما أنهم لم يروها في أنفسهم لخروجهم عن الولاية بسبب ضلالتهم وشؤم بدعتهم؛ ولأنهم ظنوا أن ذلك لو جاز لانسد طريق الوصول إلى معرفة النبي والرسول؛ ولأن الفائدة في ظهورها منعدمة بخلاف المعجزة فإن الحاجة إلى معرفة النبي من المتبني ماسة ولا حاجة إلى معرفة الولي من غيره، إذ ليس فيه تكليف الاعتقاد بولايته.

فيرى الأشعري - ردًا عليهم - أن المعجزات تختص بالأنبياء والكرامات تكون للأولياء ... اعلم أن كل كرامة تظهر على يد ولي فهي بعينها معجزة لنبي إذا كان الولي في معاملاته

(1) النسفي، التمهيد في أصول الدين، مصدر سابق، ص83.

(2) محمد عبده، التوحيد، مرجع سابق، ص177.

(3) الياضي، روض الرياحين، مصدر سابق، ص28.

(4) الجيلاني، فتوح الغيب، مصدر سابق، ص123.

تابعًا لذلك النبي وكل ما يظهر في حقه فهو دليل على صدق أستاذه وصاحب شريعته فلا تكون الكرامة قط قاذحة في المعجزات بل هي مؤيدة لها دالة عليها راجحة عنها وعائدة إليها. (1) فإن الكرامة للأولياء لا تكون معجزة لأن من شرط المعجزة اقتران دعوى النبوة بها والمعجزة لم تكن معجزة لعينها وإنما كانت معجزة لحصولها على أوصاف كثيرة فمتي اختل شرط من تلك الشرائط لا تكون معجزة وأحد تلك الشرائط دعوى النبوة والولي لا يدعي النبوة والذي يظهر عليه لا يكون معجزة وهو القول الذي نعتمده ونقول به بل ندين به فشرائط المعجزات كلها أو أكثرها توجد في الكرامة إلا هذا الشرط الواحد والكرامة فعل لا محالة محدث لأن ما كان قديمًا لم يكن له اختصاص بأحد وهو ناقض للعادة وتحصل في زمان التكليف وتظهر على عبد تخصيصًا له وتفضيلًا وقد تحصل باختياريه ودعائه وقد لا تحصل وقد لا تكون بغير اختياريه في بعض الأوقات. (2)

أما الإمام أبو حامد الغزالي، فعندما سأل هل تجوزون الكرامات؟ قال: "قلنا اختلف الناس فيه والحق ذلك جائز فإنه يرجع إلى خرق الله تعالى العادة بدعاء إنسان أو عند حاجته وذلك مما لا يستحيل في نفسه لأنه ممكن ولا يؤدي إلى محال آخر فإنه لا يؤدي إلى بطلان المعجزة لأن الكرامة عبارة عما يظهر من غير اقتران التحدي به فإن كان مع التحدي فإننا نسميه معجزة ويدل بالضرورة على صدق المتحدي وإن لم تكن دعوى فقد يجوز ظهور ذلك على يد فاسق لأنه مقدور في نفسه فإن قيل فهل من المقدور إظهار معجزة على يد كاذب قلنا المعجزة مقرونة بالتحدي سبحانه نازلة منزلة قوله صدقت وأنت رسول وتصديق الكاذب محال لذاته. (3)

وبالتالي فإن زيادة المعجزات تزيد قلوب الأنبياء تشبيهاً "لِيَطْمَئِنَّ قُلُوبِي" [البقرة/260]. وزيادة الكرامات تزيد قلوب الأولياء وجلًا وخيفة حذار من أن يكون استدراجًا. قال تعالى: "وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ" [الأنعام/59]. قال ابن عطاء في هذه الآية: يفتح لأهل الخير المحبة والرحمة، ولأهل الشر الفتنة والمهانة، ولأهل الولاية الكرامات، ولأهل السرائر السر، ولأهل التمكين جذبًا. (4) فإن من أكبر الدعاوي من ادعى في الله، أو أشار إلى الله، أو تكلم عن الله، أو دخل في ميدان الانبساط. فإن ذلك كله من صفات الكذابين. قال تعالى: "إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا" [الكهف/5].

(1) الشهرستاني، نهاية الإقدام، مصدر سابق، ص498.

(2) القشيري، الرسالة، مصدر سابق، ص274/275.

(3) الغزالي، الاقتصاد في الاعتقاد، مصدر سابق، ص91.

(4) ابن عطاء، التفسير، ضمن كتاب نصوص فلسفية غير منشورة، تحقيق وتقديم بولس نوياليسوعي، دار المشرق، ط2، بيروت، 1982م، ص49.

ويجمل البغدادي في أصول الدين (1) القول بأن المعجزات والكرامات متساوية في كونها ناقضة للعادات، ثم يبين الفرق بينهما فيما يلي:

1- تسمية ما يدل على صدق الأنبياء معجزة، وتسمية ما يظهر على الأولياء كرامة للتمييز بينهما. والتحدي هو الفارق بينها وبين الكرامة والسحر، إذ لا حاجة فيهما إلى التصديق، فلا وجود للتحدي إلا إن وُجد اتفاقاً، وإن وقع التحدي في الكرامة عند من يجيزها وكانت لها دلالة فإنما هي على الولاية وهي غير النبوة.

2- إن صاحب المعجزة لا يكتم معجزته، بل يظهرها ويتحدى بها خصومه، ويقول: "إن لم تصدقوني فعارضوني بمثلها" وصاحب الكرامة يجتهد في كتمانها، ولا يدعي فيها، فإن أطلع الله عليها بعض عباده كان ذلك تنبيهاً لمن أطلعه الله تعالى عليها على حسن منزلة صاحب الكرامة عنده، أول على صدق دعواه فيما يدعيه من حال. 3- إن صاحب المعجزة مأمون التبدل، معصوم عن الكفر والمعصية بعد ظهور المعجزة عليه، وصاحب الكرامة لا يؤمن بتبدل حاله.

ويبين الطوسي الشيخ الصوفي غلط المنكرين للكرامات، ويوضح في كتابه "اللمع" الفرق البين الواضح بين المعجزة والكرامة فيقول: "الآيات لله، والمعجزات للأنبياء، والكرامات للأولياء ولخير المسلمين. فإن الكرامات حق للزاهد المخلص الصادق في طاعته لله. والجنيد يرى أن الولي الذي لا تظهر عليه كرامات أو لا يناله شيء منها فهو كالحیوان الذي يأكل التبن ... وسبب صدق الكرامة أو حدوثها بالفعل هو أن هؤلاء القوم - الأولياء - مشهورون بالصدق والدين، وكل واحد منهم إمام مشار إليه في ناحيته، ومقتدى به في أحكام الدين، فقد صدقهم المسلمون في أحكام دينهم. (2)

وحاول الطوسي إيجاد اختلاف بين المعجزة والكرامة، وإن كنت أرى الطوسي قد بالغ كثيراً في إيجاد اختلافات بين المعجزة والكرامة، وقصر الاختلاف حول نفس النبي ونفس الولي وهما بالفعل يتفقان على الطاعة لله ونشر دينه بين العباد، فمن علامات الأنبياء قبل الوحي خلق الخير والزكاة ومجانبة المذمومات والرجس أجمع، وهذا هو معنى العصمة، وكأنه - النبي - مفسطور على التنزه عن المذمومات والمنافرة لها، وكأنها منافية لجبلته. وهذه الصفات بالنسبة للولي ممكن تأتي بعد اعتناق الدين. فلقد حاول الطوسي أن يجعل للمعجزة والكرامة بُعداً نفسياً فقط، بل حاول أن يجعل من الكرامة والمعجزة مجرد نظر شخصي باطني، فالأصل في المعجزة

(1) البغدادي، أصول الدين، مكتبة الخانجي، ط1، القاهرة، 1928م، ص174.

(2) الطوسي، اللمع، مصدر سابق، ص275.

والكرامة أن لهما أبعادًا عملية، فلم يحتج النبي بالمعجزة لغرض شخصي وإنما لتأصيل أركان الدين في نفوس المشككين وكذلك الولي فإن ثبوت الكرامة عنده من ثبوت العقائد الإيمانية وإثبات صحة الدين والطريق. وإجمالاً، هناك اختلافات بين المعجزة والكرامة.

من هذه الاختلافات:

1- أن الأنبياء عليهم السلام مستعدون بإظهار ذلك للخلق، والاحتجاج بها على من يدعونها إلى الله تعالى، فمتى ما كنتموا ذلك فقد خالفوا الله تعالى في كتمانها، والأولياء مستعدون بكتمان ذلك عن الخلق، وإذا أظهروا من ذلك شيئاً للخلق لاتخاذ الجاه عندهم فقد خالفوا الله وعصوه بإظهار ذلك.

2- أن الأنبياء عليهم السلام يحتجون بمعجزاتهم على المشركين، والأولياء يحتجون بذلك على نفوسهم حتى تطمئن وتوقن ولا تضطرب ولا تجزع.

3- كلما زادت معجزات الأنبياء وكثرت كان ذلك أتم لمعانيهم وأثبت لقلوبهم، وكلما زادت الكرامات للأولياء كان وجلهم أكثر وخوفهم أكثر حذرًا أن يكون ذلك من المكر الخفي لهم والاستدراج. (1)

في النهاية المهم إذاً ليس صدور الكرامات عن الولي، بوصفها فضلاً من الله له بسبب استقامته، وبغير طلبه، وإنما الأهم هو حياة الولي من جهة استقامته، فيها ينال الكرامة، ولهذا فمن ظهرت عليه الكرامات بسبب الاستقامة فهو صفي ولي، ومن أتى بخرق عادة بلا عبادة، فهو شيطان غوي وليس في هذا غرابة فقد تحصل الكرامة بسبب الاستقامة وقد تحصل بغيرها، ولهذا لم يجعلها - الصوفية - شرطاً واجباً لمكانة الولي، إذ قد ينالها الممكور أيضاً على حد قول ابن عربي. وهو ما يتفق فيه أيضاً مع السهروردي البغدادي معاصره. (2)

وفي النهاية تأتي الخاتمة التي تحتوي على أهم النتائج التي توصل إليها الباحث حول موضوع "التصوف كيمياء النفس".

أولاً: عامة دعوة الأنبياء والرسل هي الزهد في مطامع الدنيا وزخرفها، فمن تخطى نجا وفاز بالسعادة في الدنيا والآخرة، فهناك من استجاب لهذه الدعوة وصار من العباد المخلصين السالكين إلى الله والمؤسسين لقيم الحياة الروحية السليمة. وهناك من ألبس الحق بالباطل ونظر في نتائج هذا الزهد وهذه الحياة التأملية، فادعى أنه يطير في الهواء ويحيي الموتى، ومعه أكسير الحياة، ويحول المعادن الخسيسة إلى نفيسة، وتحولت حياة الزهد من عبادة إلى تجارة. فإن الولي

(1) نفس لمصدر السابق، ص275، 276، 277.

(2) د/ أحمد الجزار، ابن باديس والتصوف، مرجع سابق، ص116.

الحقيقي يحقر من شأن الكرامات لا يأخذها حرفة أو مهنة ولا يدعونها لأنفسهم ، لأنهم يرون فيها مجالاً للفتنة والغرور، وسبيلاً إلى الرياء، وأن التحدث عنها والتحدث بها فيها ركون إلى ما سوى الله. وهذا بعينه هو الشرك الخفي عندهم. وأكبر الكرامات هو تغيير صفات النفس وتطهيرها من شوائبها لا ما ذكره من خوارق الطبيعة. طبيعي أن تكون دعوة كل الأنبياء عامة. وإدريس وموسى وداود وسليمان خاصة هي دعوة التوحيد، فليس معنى أنهم أصحاب مهن وصدرت عنهم معجزات أن يفسر بعض المشوشين أن ذلك راجع إلى الصنعة أو المهنة نفسها وليس إلى الله الواهب المانع. ويعتقدوا بأنهم إذا تعلموا هذه الفنون من السحر وظهرت على أيديهم الحيل الخارقة أصبحوا أنبياء أو أولياء صالحين. هيهات وتباً لهم!

ثانيًا: الغرض الواضح من الممخرقين هو تقشي فكرة المعجزة والكرامة بين عامة الناس، فلا بد لنا أن نوضح بأن الكرامة ليست شرطاً لازماً للصوفية، لأن للأسف الشديد صارت الكرامات هي شغل الناس الشاغل وصاروا يلهثون وراء كل دجال ومشعوذ، فأصبح المقياس عندهم لصحة الولاية هو ظهور الكرامات، حتى ظنوا الكرامات وخوارق العادات من ضروب الصناعات، بل وتتافس فيها الدجالون والسحرة وتتأخروا، وهو الأمر الذي يبرأ منه الله ورسوله وأوليائه وأهل العلم أجمعون فإن الكرامات امتحان وابتلاء كالملك والسلطان والمال قال تعالى عن نبيه سليمان لما رأى عرش بلقيس عنده : " هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ " [النمل/40] فالنعم ابتلاء من الله وامتحان يظهر بها شكر الشكور وكفر الكفور كما أن المحن بلوى منه سبحانه فهو يبتلي بالنعم كما يبتلي بالمصائب، قال تعالى: " فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (15) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ " [الفجر/15، 16] أي ليس كل من وسعت عليه وأكرمته ونعمته يكون ذلك إكراماً مني له ولا كل من ضيقت عليه رزقه وابتليته يكون ذلك إهانة مني له. وأكبر شاهد على ذلك قصة قارون، فما حدث له في البداية والنهاية دليل وشاهد على ذلك.

ثالثاً: لابد أن نعرف بأن الولاية الحقيقية هي اتباع الدين، فإن المستقيمين من السالكين لا يسوغون للسالك ولو طار في الهواء، أو مشى على الماء، أن يخرج عن الأمر والنهي الشرعيين، بل عليه أن يفعل المأمور، ويدع المحذور، إلى أن يموت. وهذا هو الحق الذي دل عليه الكتاب والسنة وإجماع السلف. فليس الشرك عبادة الأصنام فحسب، بل هو متابعة الكهان والسحرة والاعتقاد فيهم، فذلك من متابعتك هواك، وأن تختار مع ربك شيئاً سواه من الدنيا وما فيها، والآخرة وما فيها. فالأولياء محفوظون عن الهوى، والأنبياء معصومون عن الهوى، والكهنة غارقون في الكفر وخداع الناس. فإن التصوف السني لم يأخذ من القيل والقال ولكن عن الجوع وترك الدنيا وقطع المألوفات والمستحسنات وكثرة الذكر لله عز وجل وأداء فروضه وواجباته وسنته والاتباع لجميع ما أمر به والانتهاز عن جميع ما نهى عنه.

رابعاً: كرامات الأولياء من تنمة معجزات الأنبياء وكل رسول كان له أتباع ظهرت لهم كرامات ومخرقات للعادات. وكل نبي ظهرت كرامته على واحد من أمته فهي معدودة من جملة معجزاته. فنسج اليهود أفكاراً سموها الأفكار الهرمسية وهي خليط من أعمال الكهنة، فقاموا بدمج أفكار السيمياء والطلسمات والسحر بدعوة الأنبياء والرسول إلى الزهد، فنتج من هذا الخليط العجيب الفكر الغنوصي، وهو فكر يدعو إلى الاتحاد والحلول وتشبيه الخالق بالمخلوق وتلقف ذلك أعداء الدين الإسلامي وهم أيضاً في الأصل يهود واستغلوا حُب الناس لآل البيت، فغالوا في الإمام عليّ حتى جعلوه إلهاً. ولم يكن هناك أرض خصبة أفضل من التصوف الذي يمثل الحياة الروحية للمسلمين، لبث تلك السموم ، فذهبوا إلى أن أي إنسان إذا استطاع أن يمسك عن القوت المعتاد برهة من الزمان وأن يتخلص من الأشياء المادية ويقطع علائق البدن، يستطيع أن يتصل بالخالق بل يصيران الاثنان في واحد، وبالتالي أرادوا أن يلحقوا بالتصوف عقيدة إلحادية تسعى لنفي فكرة الوجدانية مستغلين جهل العامة من الناس لإرتباطهم بمفهوم الكرامات التي هي في الأصل موجودة لتجديد دوافع الناس للارتباط بالدين. فلا بد لنا أن نوضح بأن هؤلاء اليهود اعتمدوا على الجزء الأول من الرواية فقط، أن الكرامات والمعجزات تعتمد على الزهد لكن في نفس الوقت زهد يستمد معناه من القرآن والسنة الذي يعتمد على أن قلب الإنسان المؤمن لا يمتلكه إلا الله وهذا هو الزهد الحقيقي. أما الجزء الآخر من الرواية هو أن الزهد لا يكون إلا مع العبادة، فإن العبادة هي أول طريق السالكين، والأولياء أكثر الناس قياماً بفرائض الله سواء كانت ظاهرة أو باطنة، فوجدنا كل مأمور به أو مندوب إليه يستلزم الجمع على الله، وكل منهي عنه أو مكروه يتضمن التفرقة عنه.

وهذه أعظم الكرامات. والجمع والفرق هنا لا يفهم - كما حاول أن يروج اليهود - بأن ذلك دعوة للإتحاد، فهذا معناه الحقيقي هو خروج الولي عن تدبيره إلى تدبير الله، وعن انتصاره لنفسه لانتصار الله، وعن حوله أقوىته بصدق التوكل على الله، وقد قال الله سبحانه : " وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ " [الطلاق/3] وقد قال الله عز وجل: " وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ " [الروم/47]. وكان ذلك لهم لأنهم جعلوا الله تعالى مكان همومهم، فدفع عنهم الأغيار، وقام لهم بوجود الانتصار. وهب علمائنا الأفاضل لاستكثار فعلة اليهود وأكدوا أن الكرامات لم ولن تكون دعوة إلى التشبيه والتجسيم، فإن العابد المخلص قد منح يقيناً كاملاً وقلباً شاهداً وحالاً عالياً وحياء زاجراً له وحاجراً عليه أن يتلفت إلى غير مولاه أو يرى معه سواه، كما قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي إنا لا نرى مع الحق من الخلق أحداً، وإن كان ولا بد فالكهباء بالهواء إن فتشته لم تجد شيئاً. فالدعوة هنا دعوة للتحرر من رق الشهوات والبحث عن أكسير الحياة وتحويل التراب إلى ذهب أو قراءة المستقبل لاستقراء المجهول عن طريق النجوم والكواكب ورد المطلقة وتزويج

العانس وعمل حجاب بالمحبة، فلا ينشغل الإنسان إلا بالخالق وهو المصرف والمتصرف في كل الأمور هذا هو أصل الكرامة والمعجزة.

خامساً: أنكرت المعتزلة وأهل الظاهر كرامات الأولياء؛ لاعتقادهم بالتداخل بين المعجزة والكرامة، فلقد أنكرت القدرية كرامات الأولياء؛ لأنهم لم يجدوا من فرقهم ذا كرامة. وعند أهل السنة يجوز ظهور الكرامات على الأولياء، وجعلوها دلالة على صدقهم في دعاويهم. وعلى صاحب المعجزة - عند أهل السنة- إظهارها والتحدي بها، وصاحب الكرامات لا يتحدى بها غيره، وربما كتمها، وصاحب المعجزة مأمون العاقبة، وصاحب الكرامة لا يأمن تغير عاقبته كما تغيرت عاقبة بلعم بن باعورا بعد ظهور كراماته.

سادساً: المعجزة: ظهور أمر بخلاف العادة في دار التكليف لإظهار صدق مدعي النبوة مع نكول من يتحدى به عن معارضته بمثله. وإنما قيدنا بدار التكليف؛ لأن ما يظهر من النافض للعادة في الدار الآخرة لا يكون معجزة، وإنما قلنا: لإظهار صدق مدعي النبوة؛ ليقع الاحتراز به عما يظهر على يدي مدعي الألوهية، إذ ظهور ذلك على يده جائز، وفيه أيضاً احتراز عما يظهر على يدي الولي إذ ظهور ذلك كرامة للولي جائز، وإنما قلنا: لإظهار صدقه؛ لأن ذلك لو ظهر لإظهار كذبه بأن قال: الدليل على صحة نبؤتي أن هذا الحجر يشهد لي، فأنطق الله تعالى الحجر بتكذيبه لا يكون ذلك معجزة له ودليلاً على صدقه، بل يكون دليلاً على كذبه في دعواه، وإنما قلنا: مع نكول من يتحدى عن معارضته بمثله؛ لأن النافض للعادة لو ظهر على يده ثم ظهر على يدي المتحدي مثله لخرج ما ظهر على يده عند المعارضة عن الدلالة؛ إذ مثله الذي ظهر على يدي من يكذبه يكون دليل صدقه تكذيبه، فيكون دليل كذبه، فيتعارض الدليلان فيسقطان.

سابعاً: الكرامة للأولياء، أما المعجزة فللأنبياء، والولي الصادق لا يدعي النبوة أو يقول أنه صاحب معجزة، وهو يدعو إلى الحق والصدق، فإذا من الله عليه بكرامة أو خرق عادة، فإنه لا يدعي لنفسه النبوة، ولا يقدر في نبوة النبي أو الرسول أو يشك فيها، لأنه يدعو إلى ما يدعو إليه النبي من الفضائل والآداب والمحافظة على السنن والأحكام الشرعية، فإذا أظهرت عليه الكرامة قال: ذلك تأييد لدعوة النبي وإظهار الصدق للرسالة.

قائمة المصادر والمراجع

- ابن أبي إصبيعة، كتاب عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ج1، تحقيق، د/ عامر النجار، دار المعارف، ط1، القاهرة، 1996م.
- ابن الأثير، الكامل، ج8، تحقيق عمر عبد السلام، دار الكتاب العربي، ط1، بيروت، 1977م.
- ابن البان، المواقف الإلهية ضمن كتاب الإنسان الكامل في الإسلام د/ عبد الرحمن بدوي، وكالة المطبوعات، ط2، الكويت، 1979م.
- ابن القيم، أعلام الموقعين، ج2، تحقيق د/ محمد عبد السلام إبراهيم، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1991م.
- ابن القيم، إغاثة اللهفان، ج1، تحقيق محمد حامد الفقي، دار المعرفة، ط2، بيروت، 1975م.
- ابن النديم، الفهرست، ج1، تحقيق، جوستاف فليجل،، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، 2006م.
- ابن تيمية، الرد على المنطقيين، تحقيق د/ عبد الصمد شرف الدين، مؤسسة الريان، ط1، بيروت، 2005م.
- ابن تيمية، الفرقان بين أولياء الله الرحمن وأولياء الشيطان، تحقيق د/ مصطفى العدوي، مكتبة الإيمان، المنصورة، د.ت.
- ابن تيمية، النبوات، دار الكتب العلمية، بيروت، 1985م.
- ابن جليل، طبقات الأطباء والحكماء، تحقيق د/ فؤاد سيد، طبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، ط1، القاهرة، 1955م.
- ابن حجر، لسان الميزان، ج1، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ط2/بيروت، 1971م.
- ابن حزم، الفصل في الملل والنحل، ج1، تحقيق د/ محمد إبراهيم نصر، دار الجبل، بيروت، د. ت.

- ابن خلدون، المقدمة، ج3، تحقيق د/ على عبد الواحد وافي، نهضة مصر للنشر، ط9، القاهرة، 2019م.
- ابن خلدون، شفاء السائل، تحقيق، أغناطيوس اليسوعي، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ط1، القاهرة، 2022م.
- ابن عربي، الفتوحات المكية، السفر الرابع، تحقيق د/ عثمان يحيى، د/ إبراهيم مذكور، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1986م.
- ابن عطا الله السكندري، لطائف المنن، تحقيق د/ عبد الحليم محمود، دار المعارف، ط3، القاهرة، 2006م.
- ابن عطاء، التفسير، ضمن كتاب نصوص فلسفية غير منشورة، تحقيق وتقديم بولس نوياليسوعي، دار المشرق، ط2، بيروت، 1982م.
- ابن فاتك، مختار الحكم ومحاسن الكلم، تقديم وتحقيق د/ عبد الرحمن بدوي، المؤسسة العربية، ط2، بيروت، 1980م.
- ابن كثير، البداية والنهاية، ج1، تحقيق د/ حسان عبد المنان، بيت الأفكار الدولية، بيروت، 2004م.
- أبو العلا عفيفي، التصوف الثورة الروحية في الإسلام، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط1، القاهرة، 2013م.
- أبو بكر الرازي، منارات السائرين ومقامات الطائرين، تحقيق د/ سعيد عبد الفتاح، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط1، القاهرة، 1999م.
- أحمد الجزار، ابن باديس والتصوف، منشأة المعارف، ط1، الاسكندرية، 1999م.
- أحمد شلبي، اليهودية، مكتبة النهضة المصرية، ط2، القاهرة، 1988م.
- أحمد محمود صبحي، في علم الكلام، مؤسسة الثقافة الجامعية، ط2، الاسكندرية، 1978م.
- إخوان الصفا، الرسائل، المجلد الرابع، دار صادر، بيروت، د. ت، ص284.

آدم مitez، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ، ج2، ترجمة د/ محمد عبد الهادي أبو ريدة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2013م.

اسين بلاثيوس، ابن عربي، ترجمة د/ عبد الرحمن بدوي، مكتبة الأنجلو المصرية، ط2، القاهرة، 1965م.

أفلاطون، فيدون، ترجمة وتعليق د/ علي سامي النشار، د/ عباس الشربيني، دار المعارف، ط3، القاهرة، 1965م.

الإيجي ، المواقف، مكتبة المتنبي، ط1، القاهرة، د. ت. الباقلاني، الإنصاف، تحقيق الكوثري، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، ، 2000م.

الباقلاني، التمهيد، تصحيح الأب رتشرد يوسف اليسوعي، المكتبة الشرقية، بيروت، 1957م.

الباقلاني، كتاب البيان، تصحيح، يوسف مكارثي، المكتبة الشرقية، ط1، بيروت، 1985م.

البرزدوي، أصول الدين، دار السلام، القاهرة، 2021م. البغدادي، أصول الدين، مكتبة الخانجي، ط1، القاهرة، 1928م. البغدادي، الفرق بين الفرق، تحقيق د/ محمد محيي الدين عبد الحميد، مكتبة دار التراث، ط2، القاهرة، 2007م.

البيروني، الآثار الباقية عند القرون الخالية، دار نشر خورشيدي همدان، ط1، إيران، 1378هـ.

التستري، تفسير القرآن العظيم، تحقيق د/ طه عبد الرؤوف سعد، دار الحرم للتراث، ط1، القاهرة، 2004م.

التفتازاني، شرح العقائد النسفية، المكتبة الأزهرية للتراث، ط1، القاهرة، د. ت. التهانوي، الكشف، ج1، دار صادر، ط1، بيروت، د. ت.

- بنيامين فارتن، العلم الإغريقي، ترجمة د/ أحمد شكري سالم، المركز القومي للترجمة، ط1، القاهرة، 2011م.
- الجنيد، السر في أنفاس الصوفية، تقديم د/ عبد الباري داود، تحقيق د/ جودة محمد أبو اليزيد، دار جوامع الكلم، القاهرة، 1426هـ.
- الجويني، الإرشاد، تحقيق محمد يوسف موسى، دار السعادة، القاهرة، 1950م.
- الجويني، لمع الأدلة، تقديم د/ فوقيه حسين، المؤسسة المصرية العامة، القاهرة، 1965م.
- الجيلاني، فتوح الغيب، مع تعليقات ابن تيمية، تحقيق د/ عبد العليم محمد الدرويش، دار الهادي، القاهرة، د. ت.
- الجيلي، الإنسان الكامل، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط4، القاهرة، 1402هـ.
- الدوميلي، العلم عند العرب، ترجمة د/ محمد يوسف وآخرون، دار القلم، ط1، الكويت، 1962م.
- الرازي، الأربعين في أصول الدين، ج2، تحقيق د/ أحمد حجازي السقا، دار الجيل، ط1، بيروت، 2004م.
- الرازي، التفسير الكبير، ج1، دار الفكر للنشر والتوزيع، ط1، بيروت، 1981م.
- الرازي، المطالب العالية، ج8 [في النبوات وما يتعلق بها] دار الكتاب العربي، ط1، بيروت، 1987م.
- الزركلي، الإعلام، ج2، المطبعة العربية، القاهرة، 1927م.
- السجستاني، صوان الحكمة، تحقيق د/ عبد الرحمن بدوي، طهران، 1974م.
- السلمي، حقائق التفسير، ج2، تحقيق د/ سيد عمران، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 2001م.
- السلمي، طبقات الصوفية، تحقيق د/ نور الدين شريعة، دار الكتاب العربي، ط1، القاهرة، 1953م.

- السلمي، غلطات الصوفية، تصحيح عبد الفتاح الفاو، ضمن كتاب مجموعة آثار السلمي، مركز نشر دانشكاهي، طهران، 1388هـ.
- السلمي، كتاب كلام الشافعي في التصوف، ضمن كتاب مجموعة آثار السلمي، مركز نشر دانشكاهي، طهران، 1388هـ.
- السهروردي، اللحات في الحقائق، تحقيق د/ أبو ريان، دار المعرفة الجامعية، ط2، الاسكندرية، 1988م.
- السهروردي، حكمة الإشراف، تصحيح هنري كوربان، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ط1، القاهرة، د.ت.
- الشعراني، الأنوار القدسية، ج1، تحقيق د/ طه عبد الباقي سرور وآخرون، مكتبة المعارف، ط1، بيروت، 1988م.
- الشعراني، الطبقات الكبرى، ج1، تحقيق د/ عبد الرحيم السايح، مكتبة الثقافة الدينية، ط1، القاهرة، 2005م.
- الشعراني، نتيجة العلوم، تحقيق د/ عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، ط2، بيروت، 2006م.
- الشهرستاني، الملل والنحل، ج2، تحقيق محمد سيد كيلاني، دار صعب، ط1. بيروت، 1986م.
- الشهرستاني، نهاية الإقدام، حرره وصححه الفريد جيوم، مكتبة الثقافة الدينية، ط2، القاهرة، 2009م.
- الطبري، تاريخ الطبري، ج10، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، ط2، القاهرة، د.ت.
- الطبري، جامع البيان، ج3، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1980م.
- الطوسي، اللمع، ضبطه د/ كامل الهنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.
- الغزالي، الاقتصاد في الاعتقاد، المطبعة الأدبية، ط1، القاهرة، د.ت.
- الغزالي، كيمياء السعادة، مكتبة الجندي، القاهرة، د.ت.

القاضي عبد الجبار، المختصر في أصول الدين، ضمن كتاب رسائل العدل والتوحيد، ج1، تحقيق د/ محمد عمارة، دار الهلال، ط1، القاهرة، د.ت.

القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج2، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط3، القاهرة، 1987م.

القشيري، الرسالة القشيرية، ج1، مكتبة ومطبعة محمد على صبيح، القاهرة، د.ت.

القفطي، إخبار العلماء بأخبار الحكماء، دار الكتب العلمية ، ط1، بيروت، 2005م.

الماتريدي، التوحيد، تحقيق د/ فتح الله خليف، دار النهضة المصرية، ط1، القاهرة 1989م.

المسعودي، مروج الذهب، ج2، دار المعرفة، ط1، بيروت، 2005م.
المعجم الوجيز، مادة كرم، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، القاهرة، 1998م.

المقدسي، البدء والتاريخ، ج3، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، د.ت.
المنائي، الكواكب الدرية، ج1، تحقيق أديب الجادر، دار صادر، بيروت، د.ت.
النسفي، التفسير، ج3، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1980م.
النسفي، العقائد النسفية، المكتبة الأزهرية للتراث، ط1، القاهرة، د.ت.
النوبختي، فرق الشيعة، منشورات الشيعة، منشورات الرضا، ط1، بيروت، 2012م.

الهجويري، كشف المحجوب، ج1، ترجمة د/ إسعاد عبد الهادي قنديل، تقديم د/ بديع جمعة ، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2007م.

اليافعي، روض الرياحين، تحقيق محمد عزت، المكتبة التوفيقية، القاهرة، د.ت.

- ببیر لوری، من تاریخ الهرمسیة والصوفیة فی الإسلام، ترجمة د/ لويس صلیبا، دار ببیلیون، ط4، بیروت، 2016م.
- جلال شرف، أعلام التصوف فی الإسلام، دار الجامعات، ط1، الاسکندریة، 1976م.
- جلال موسی، نشأة الأشعرية وتطورها، دار الكتاب اللبنانی، ط1، بیروت، 1975م.
- جورج جیمس، التراث المسروق، ترجمة د/ شوقي جلال، المجلس الأعلى للثقافة، ط1، القاهرة، 1996م.
- جولد تسیهر، العناصر الأفلاطونیة المحدثة، ضمن كتاب التراث اليونانی فی الحضارة الإسلامیة، ترجمة د/ عبد الرحمن بدوی، مكتبة النهضة المصریة، ط2، القاهرة، 1946م.
- حسن الشرقاوی، ألفاظ الصوفیة ومعانیها، دار المعرفة الجامعیة، ط2، الاسکندریة، د. ت.
- راسل، تاریخ الفلسفة الغربیة، ج1، ترجمة د/ ذكي نجیب محمود، لجنة التألیف والترجمة والنشر، القاهرة، 1957م.
- شقیق البلخی، آداب العبادات، حققها، بولس نویا الیسوعي، دار المشرق، ط2، بیروت، 1982م.
- صاعد، طبقات الأمم، تحقیق لويس شیخو، المطبعة الكاثولیکیة، ط1، بیروت، 1912م.
- عادل مصطفی، نظریة التأویل، رؤية للنشر، ط1، القاهرة، 2007م.
- عبد الفتاح أحمد فؤاد، الأصول الرواقیة فی الفلسفة الإسلامیة، دار الوفاء، ط1، الاسکندریة، 2003م.
- عبد الفتاح فؤاد، الفرق الإسلامیة وأصولها الإیمانیة، ج1، دار الوفاء، ط1، الاسکندریة، 2003م.

- عبد الفتاح فؤاد، فلاسفة الإسلام، دار الوفاء، ط1، الاسكندرية، 2006م.
- على وفا الشاذلي، مفاتيح الخزائن العلية، تحقيق د/ سعيد عبد الفتاح، الهيئة العامة للكتاب، ط1، القاهرة، 2013م.
- علي سامي النشار، نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ، ج1، دار المعارف ، ط10، القاهرة. 2018م.
- فاضل أحمد الطائي، أعلام العرب في الكيمياء، الهيئة العامة للكتاب، ط1، القاهرة، 1986م.
- فريد الدين العطار، تذكرة الأولياء، تحقيق د/منال اليمني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط1، القاهرة، 2008م.
- كارلو نيلينو، علم الفك وتاريخه عند العرب، طبعة روما، 1912م.
- لويس مینار، هرمس المثلث العظمة، ترجمة د/ عبد الهادي عباس، دار الحصاد ، ط1، دمشق، 1998م.
- ماسينيون، ومصطفى عبد الرزاق، التصوف، ترجمة إبراهيم خورشيد وآخرون، دار الكتب اللبناني، ط1، بيروت، 1984م.
- محمد بن إياس الحنفي ، بدائع الزهور ، ج1، تحقيق د/ محمد مصطفى ، الهيئة العامة للكتاب، ط2، القاهرة، د.ت.
- محمد جلال شرف، التصوف الإسلامي في مدرسة بغداد، دار المطبوعات الجامعية، ط1، الاسكندرية، 1975م.
- محمد عبد الحميد الحمد، صابئة حران والتوحيد الدرزي، دار الطليعة الجديدة، ط1، دمشق، 1999م.
- محمد عبده، رسالة التوحيد، تحقيق د/ أبو رية، دار المعارف، القاهرة، د. ت.
- مسكويه، الفوز الأصغر، تقديم د/ عبد الفتاح أحمد فؤاد، دار الوفاء، ط1، الاسكندرية، 2010م.

- مسلم ، الصحيح، ج1، تحقيق د/ محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، ط1، القاهرة، د.ت.
- نجيب بلدي، تمهيد لتاريخ مدرسة الإسكندرية، دار المعارف، ط2، القاهرة، د.ت.
- نيكلسون، في التصوف الإسلامي وتاريخه، ترجمة د/ أبو العلا عفيفي ، مطبعة لجنة التأليف والنشر، ط1، القاهرة، 1947م.
- هرمس، زجر النفس، دار المحجة البيضاء، ط1، بيروت، 2006م.
- هولميارد، مصنفات في علم الكيمياء، طبعة باريس، 1928م.
- هيدجر، الوجود والزمان، ترجمة د/ فتحي المسكيني ، مراجعة د/ إسماعيل المصدق، دار الكتب الجديدة، ط1، ليبيا، 2012م.
- والاس بدج، آلهة المصريين، ترجمة د/ محمد حسين يونس، مكتبة مدبولي، ط1، القاهرة، 1998م.